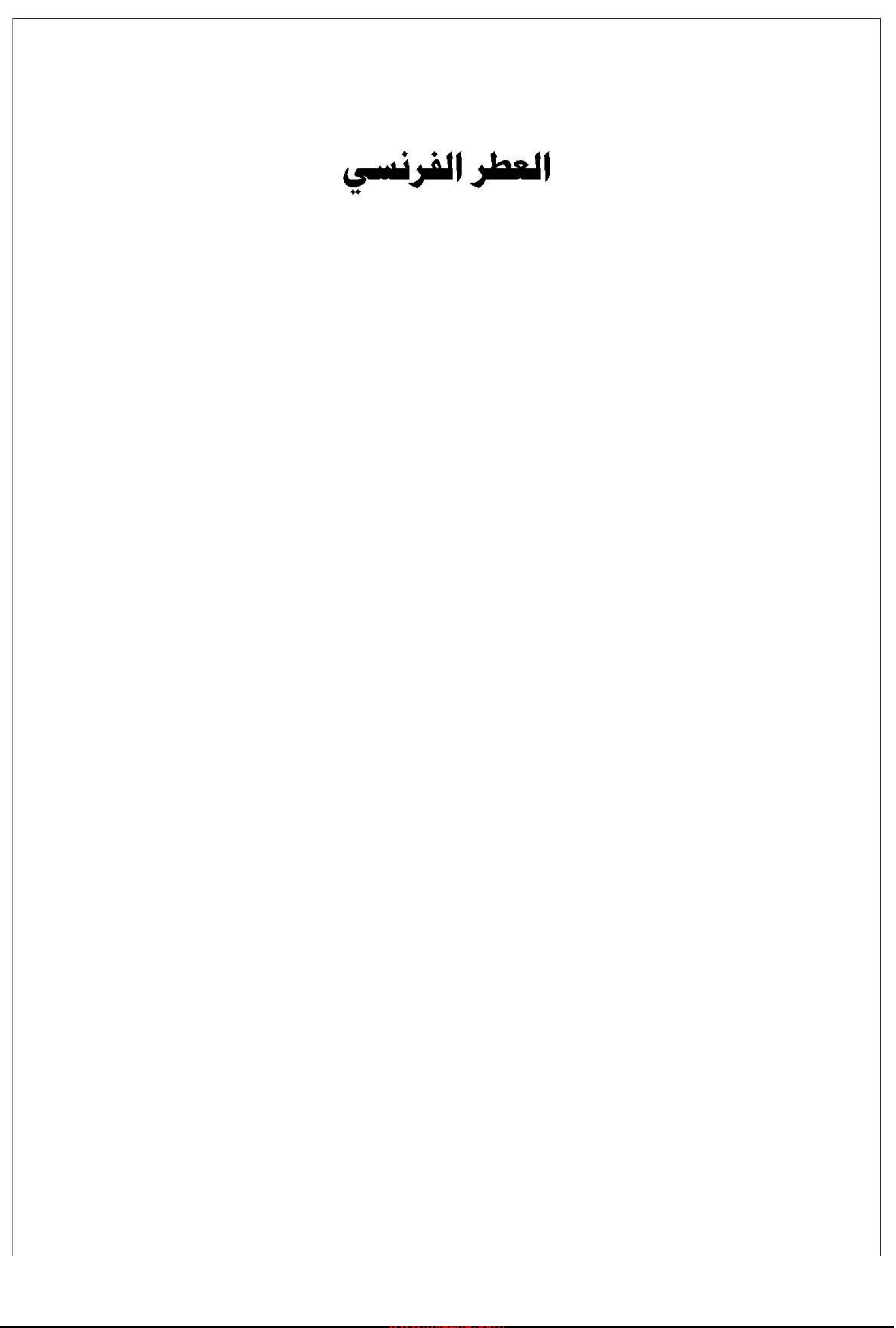
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أمير تاج السرّ

العطر الفرنسي

رواية



العطر الفرنسي

العطر الفرنسي

رواية

أمير تاج السر



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-844-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

الفصل الأول

حين يأتي خبر ما

لم يكـــن خـــبراً عادياً، ذلك الذي التقطه علي جرجار مصادفة، وأســـرع به راكضاً إلى حي غائب الشعبـــي في أطراف المدينة حيث يعيش. وبالرغم من أن الخبر في حد ذاته كان مقتضباً وغامضاً وبلا أي علامـــات إرشـــادية، إلا أن خـــيالات جرجار كانت حاضرة دائماً، ومستعدة لتطويره في أي وقت، إلى خبر ذي جدوى وتأثير.

- ستأتي الفرنسية كاتيا كادويلي في الأيام القادمة، للإقامة معكم في الحي فترة من الوقت، ضمن دراسة عالمية.. استضيفوها في أي مكان بينكم، وعيشوا حياتكم كما هي.

هذا بالضبط ما ذكره المسؤول الحكومي مبروك، حين التقى علي جـــرجار في مـــبنى محافظة المدينة التي اعتاد على زيارتها من حين لآخر بهـــدف وبلا هدف.. يعرفه المسؤول منذ أكثر من أربعين عاماً، حين تـــواجها مرة في مباراة كرة قدم خشنة، جرت في زقاق موحل داخل حي مغبَّر، وانكسرت فيها قدم الحكومي آنذاك.. ناداه وهو يوشك أن يعـــد ســـريرة بائعـــة الشاي المرابطة أمام المحافظة، بالزواج كما وعد العشرات من قبلها..

يا جرجار.. يا علي..

توقـــف بوعده للبائعة عند قيمة المهر، وعدد الجرامات في الخاتم الذي سترتديه يوم الزفاف، وتبع المسؤول الحكومي إلى داخل المبنى..

- ومـــا هـــي تلك الدراسة العالمية بالضبط؟ ولماذا حي غائب بالذات من دون أحياء الكرة الأرضية؟
- لا ندري شيئاً في الحقيقة.. هذا ما وصلنا حتى الآن.

- ومتى ستصل تلك الفرنسية؟
- أيضاً لا ندري.. ربما في الأيام أو الأسابيع المقبلة.
- وما هو المطلوب من سكان الحي؟
- لا شيء محدد.. عيشوا حياتكم كما أخبرتك، فقط انتبهوا أن بينكم غريباً.

انصرف المسؤول الحكومي إلى أشغاله، تاركاً علي جرجار حائراً.. في أثناء سكناه الطويلة في حي غائب الذي حاولت السلطة مراراً أن تسميه حي النور، أو حي زهر الروضة أو حتى حي حاضر، وأخفقت، استضافوا مئات الغرباء، بعضهم جاء ضيفاً على أحد يعرفه أو يمت إليه بصلة القرابة، بعضهم اختفاء من جرم ارتكب في مكان بعيد، بعضهم طمعاً في أرض يمتلكها بوضع اليد، أو امرأة يشتهيها، وبعضهم لا لشيء أكثر من كونهم غرباء يستضيفهم حي فقير. ومهما كانت تلك الأفواج الغريبة ومهما كثرت أعدادها وتشعبت، إلا أنها كلّها من لحم الوطن. قد تكون من الشمال أو الجنوب، أو الوسط.. لكنّها في النهاية تتبع لذلك الجسد الوطني العريض.. ويستطيع حي غائب أن يكلمها وتكلمه في أي لحظة. لكن الآن تأتي فرنسية من مكان بعيد، وثمة دراسة عالمية غير معروف أصلها وفصلها.. و"عيشوا حياتكم كما هي"، "فقط انتبهوا".. بالتأكيد لن يستوعب سكان الحي كل تلك الغوامض حين ينقلها لهم كما سمعها، لكنه سيبهّرها، ويملّحها، ويطعمها تفاصيل أخرى من عنده، قبل أن يلقي بها في أذن المايكروفون، وهو الاسم الذي كان يطلقه على حكيم النبوي، مدرس التاريخ السابق، وأحد سكان الحي المهمين، والذي بدوره قد يضيف إليها بهاراً آخر قبل أن يبثها في الحي، كما اعتاد في كل مرة يأتي فيها خبر جديد. خرج جرجار من باب المحافظة مسرعاً لدرجة أنه نسي أن

يعود إلى سريرة بائعة الشاي، يكمل معها ترتيبات الزواج المزعوم، وأن يشتم ماسح أحذية صبياً هزأ بحذائه المتسخ أمام الناس.

كـــان علـــي جـــرجار واحداً من أكثر سكان حي غائب إثارة للجـــدل، يأتي في المرتبة الثالثة بعد الدقيل الذي عاد إلى ريفه البعيد في الـــشمال، بعد أن عاش في الحي، وعربد في المدينة لثمانية وستين عاماً، وركـــشة بائـــع الثلج في موسم الصيف، الذي استولى مرة على لقب ملوكي يخص واحداً من مواطني إحدى دول الجوار، وظل يستخدمه في المديـــنة زهاء الثلاثة أعوام لدى النساء والمسؤولين، وحتى لدى الخفراء الذين يحرسون البوابات، إلى أن سمع به صاحب اللقب الأصلي، فجاء ليعـــريه في المديـــنة كلّها، ومن ثم ليخسر خمس سنوات من عمره في السجن.

كـــان علي جرجار طويلاً، ممتلئاً، قليل شعر الرأس وبلا شاربين، ولـــد ونـــشأ في الحي نفسه، وعمل مراقباً لصيانة القاطرات في السكة الحديد، إلى أن انهارت تلك الأخيرة بسبب الإهمال ونسيان الحكومات المتعاقبة لأمرها. وكان يباهي دائماً بمقاومته لمرض الملاريا وحمى التيفود والنـــزلات المعوية الموسمية، التي تصيب حتى زعماء البلاد، وبقائه عازباً بـــلا زواج، لكن عريساً دائماً لكل الفتيات منذ شبابه المبكر إلى فتيات يـــومه الحاضر، وانتمائه إلى حزب "وطنك الكبير" الذي كان في الواقع حـــزبا مغمـــوراً جدّاً، لا يضم في عضويته سوى ثلاثة أشخاص، هم: مؤســـسه الرحالة المقعد حاكم عذابو، وعلي جرجار، وواحدة قيل إن اسمهـــا سعاد سعد، لم يرها أو يعرف عنها أحد شيئاً. كان يعشق نسج الحـــيل، وتخلـــيد ذكرى الموتى المهمين في نظره، بفرضهم أسماء لمواليد الحي وشوارعه المغبرة، وابتدأ من سن مبكرة في تدريب مثانته على عدم حبس التبول، ورئتيه على عدم السعال أبداً، وذاكرته على عدم الخرف

حتى لو بلغت سنه المئة.. وكانت أعظم أعماله على الإطلاق، تلك الصيحة التي تنادي بحرية التخيل لدى الناس، والتي أطلقها من حي غائب ذات مساء، لتصل فيما بعد إلى كل أقاليم البلاد، ويطلق عليها الباحثون في السياسة والتاريخ اسم صيحة جرجار. لكن ذلك لم يعد عليه بمال أو جاه.

اختفى علي جرجار في لجة الحافلة المتجهة إلى الحي البعيد مارة بأحياء أخرى في طريقها، كان في داخلها الكثيرون ممن يعرفهم، وممن لا يعرفهم، لكنه كان في الواقع بعيداً عن جو الحافلة، غارقاً في نصه الجديد، نص الفرنسية ذات المجيء الغامض التي التقط خبرها للتو. كان يمحو في ذهنه ويضيف، يعدل ويلغي التعديل. أضاف "باريس" مرة مدينة ذات جاذبية وخصر دقيق، عاد ومحاها مخافة أن يظنها البعض امرأة فيشتهونها. جعل كاتيا كادويلي الفرنسية فتاة في العشرين من عمرها، ثم استغرب كيف يجعل فتاة في العشرين تأتي لتقيم في تلك الفوضى.. وضع حول عنقها عقداً من الماس، في شقوق أذنيها أقراطاً مذهبة، ثم خلع زينتها خوفاً من اللصوص، الذين قد يسرقون حليّها، في حقائبها بعض الصندل، ودهن العود وعباءة سوداء ذات حواف، ثم عاد وتذكر عطراً كرنفالياً اسمه موج، وقمصاناً بلا أكمام، وتنانير حتى الركبتين وبناطيل للجينز رأى السائحات الأوروبيات يرتدينها في وسط المدينة. أسكنها بيوتاً عدة في الحي، وسحبها منها بحجة فجاجة الجيران وتطفلهم على خصوصياتها، وكم من مرة أجلسها على كرسي أو سرير من الحبال، ثم أوقفها على قدميها مخافة أن تتسخ ثيابها. وحين اقتربت الحافلة التي يستقلها، من حي غائب، كان ثمة سيناريو مقبول بالنسبة إليه قد كتب:

"ستزورنا في القريب العاجل، النجمة الفرنسية كاتيا كادويلي، لتجرّب الحياة الشعبية وسطنا، وذلك بخصوص مشروع عالمي كبير يخص الدعاية والإعلان تقوم بالمشاركة فيه، ثم تعود بعد ذلك إلى بلادها، وتذكرنا بالخير".

كانت عبارة "تذكرنا بالخير" قد جاءت بعد نحت شديد للذهن، وليست مصادفة. إنها تعني أشياء عديدة هامة مثل أن تجعلنا مشاهير في العالم كله بتوثيقنا في شريط تسجيلي.. ترسل لنا المال اللازم لتطوير الحي ودفن بالوعاته وحفره.. تعتني بكلابنا وقططنا الضالة. تطلب بعضنا للهجرة والإقامة معها في باريس، وربما تحب أحدنا بجنون، وتعرض عليه الزواج. كانت "تحب أحدنا بجنون، وتعرض عليه الزواج" بالذات تخصه هو شخصياً من دون سائر سكان الحي، فقد كان علي جرجار برغم وصوله لسن تسمح لـ "تنقو" بائع الآيس كريم، وعمر الحلاق، وصليحة الممرضة في المستشفى، أن ينادوه يا جدي، ما يزال مقتنعاً بأنه صاحب جاذبية لا تقاوم، ويمكن أن يكون العريس المناسب، حتى لرقية الطالبة في الصف الثالث الابتدائي.. وبنات صفها كلهن.

كان بيته في وسط الحي تقريباً، بيتاً كسائر البيوت، نصفه من طين ونصفه من خشب مشقق. الذين أنشأوا الحي فيما مضى، أنشأوه هكذا.. كانوا واعين سطوة الفقر على حياتهم، ومهووسين بغرسه في النطف حتى لا يموت أبداً، حتى اسم غائب الذي يعني عدم الوجود أو الانمحاء، لم يأت من فراغ أو سذاجة، إنه الاسم الذي اتفق عليه الجميع، وهم يضعون اللبنات الأولى في بناء الحي. وحين جاءت أجيال بعد ذلك، طرقت التعليم، أو عرفت سكة السفر إلى بلاد الخليج العربي وأوروبا، وعادت. لم تحاول أن ترمم حائطاً مشقوقاً، أو تدفن حفرة يمكن أن تبتلع أحداً، أو حتى تمد يد المساعدة لطريق معوج،

ليستقيم. عادت لتعيش الحياة كما عرفتها، ونشأت عليها. فتح باب بيته فأحدث ذلك الصرير المزعج، الذي كان أيضاً جزءاً من ثقافة أبواب البيوت في الحي.. لا باب ينفتح بلا صرير، والباب الذي ينفتح هادئاً وسلساً، لا يحترمه أحد، ولا يطرق حتى في مناسبات الأعياد التي تعد مواسم تطرق فيها الأبواب كلّها. كانت تلك ساعته اليومية في تدريب ذهنه على عدم الخرف ليصل إلى سن المئة بلا مشاكل، لتدريب رئتيه على عدم السعال، أو الانهزام أمام الإنفلونزا، ومثانته على عدم حبس التبول الذي لن ينجو منه إذا ما تركها بلا تدريب. ألغى كل ذلك وخرج مرة أخرى من البيت.. سيذهب إلى حكيم المايكرفون ويخبره بذلك الخبر الغريب.

كانت السادسة صباحاً في الواقع، ساعة غريبة.. تلك التي اختارها حكيم النبوي، لتكون وقتاً لاجتماعات مكثفة ستجرى في بيته باستمرار، بعد أن انتهك جرجار قيلولته المقدّسة، وأخبره بخبر الفرنسية القادمة للسكنى في حي غائب. إنها الساعة التي حدثت فيها ثورات عظيمة، وانقلابات عسكرية طائشة أيضاً. الساعة التي تصفو فيها الأذهان حتى من جريرة التذكر.. الساعة التي يشاهد فيها موسى خاطر، الذي كان يعمل في إحدى الدوائر الأمنية ويتخذ الحي مادة لتقاريره اليومية، راكضاً في الأزقة والحفر، في رياضة عنيفة تلهيه عن قراءة النصوص المكتوبة والمسموعة، والمرسومة على الوجوه. والساعة التي انتحر فيها الرومانسي الرقيق طه أيوب، منذ أكثر من سبع سنوات حين اكتشف فجأة أن عرق الأنثى لا يختلف أبداً عن عرق الذكر في جميع مراحل تكوينه وتصببه على الأجساد. في ذهن النبوي خطط وليدة قد تنمو إلى خطط كبيرة، وقد تموت لتأتي غيرها، وفي ذهنه الآن خمسة أشخاص انتقاهم بعناية ليقاسمهم تلك الخطط. هو باعتباره

الــرئيس غــير الرسمي للحي، لأن الأحياء كانت بلا رؤساء رسميين، والوحيد القادر على نظم قصائد الشعر ذات المدح والهجاء، والأهم من ذلــك تاريخه الطويل في الثرثرة حين كان طفلاً ثرثاراً، ومراهقاً يكتب رســائل الحــب الثرثارة، ومعلّماً لمادة التاريخ ذات الثرثرة في المدارس الابتدائــية. علــي جرجار باعتباره ناقل الخبر، ومواطناً نشطاً في كل مرحلة من مراحل تأرجح الحي، وحلقة للوصل يمكنها أن تضفّر خيوطاً عديدة قد تترنح في وسطها سيرة الفرنسية، قبل أن تحط بسلام في حي غائب.

منعم شمعة تاجر الشنطة المسافر دائماً، أو العائد من سفر، بوصفه واحداً من وجهاء الحي، وحيث محله التجاري، قطعاً يضم عطراً سلساً أو تمثالاً من البرونـــز يمكن أن يقدم هدية للضيفة، في احتفال قد يقيمه الحــي يــوماً مــا. حليمة المرضعة قارئة الكف والمصائر، ما أهم تلك الحلــيمة، وما أهم قراءتها المستقبلية لكفوف أهل الحي في وجود كل تلك الغوامض.. تعيس الذي كان اسمه شاكر، واكتسب ذلك الاسم، لأنه الوحيد الذي لم يذق ماء زمزم، حين أرسله إلى الحي أحد المحسنين واصــطف الناس طوابير شرهة ومجنونة لتذوقه أو الاغتسال به.. كان تعيس بالنسبة للنبوي ذا فائدة عظيمة، بالرغم من أنه لم يستطع تحديد تلــك الفائدة إلى الآن، وأخيراً أيمن داؤود طالب الثانوي، الذي قطع شــوطاً كبيراً في دروب التكنولوجيا، وعن طريق شبكة الإنترنت، التي يدخلــها باستمرار في مقهى كريزي كافيه في السوق الكبير، يمكنه أن يقــدم الكــثير في ذلك الشأن.. قد يقترح البعض اسم سلافة الجميلة جدّاً، لأنها جميلة جدّاً، لكن لا محل لجمالها هنا.. قد يصرخ البعض: أين فــرفور المغني، صاحب أوبريت العمامة، الذي يعمل على تلحينه منذ أكثر من أربعين عاماً ولم يكتمل حتى الآن؟. قد يحاول جرجار إضافة

واحـــدة مـــن حبيـــباته الهامـــشيات، ليراقب نظراتها وابتساماتها أثناء الاجـــتماعات. قـــد يصرخ أحدهم مطالباً بإشراك رجل دين ذي علم بالحلال والحرام، والأمور المشتبهات ليدلي بفتواه إذا اقتضى الأمر، وقد يلغـــي موســـى خاطـــر الأمـــني رياضته العنيفة ذات صباح، يخترق الاجـــتماعات، وربما يترأسها بلا استئذان.. لكن النبوي لن يلتفت إلى شـــيء.. ولـــن يضيف أو يحذف اسماً. كانت لجنة الستة التي كونها، ومررها ببرود من طرف لسانه لعلي جرجار، في رأيه، هي أفضل لجنة تكون لمناقشة أمر ما منذ استقلال البلاد.

الـــتفت إلى علـــي جرجار، وفي صوت فخم يكاد يكون الشيء الوحيد المتبقي من فخامته القديمة بعد أن أقعده مرض الروماتيزم، قال:

- لقاؤنـــا غداً في السادسة صباحاً لمناقشة هذا الموضوع، ووضع خطط بشأنه.. لا تنس أن تحضر شاياً وزنجبيلاً.. وبعض البن. لا يوجد اجتماع بلا صداع. والآن دعني أكمل قيلولتي.

ثم نادى أحد ولديه، زوده بأسماء الأربعة المطلوبين لاجتماع الغد، باعتـــباره هـــو وعلي جرجار حاضرين. أمره أن يطوف عليهم واحداً واحـــداً، وأن لا ينـــسى أن يغـــرس في كل حفرة تطأها قدماه، خبر الفرنسية القادمة إلى حي غائب المكتظ بآذان شرهة لامتصاص الأخبار.

خـــرج علي جرجار من عند النبوي متجهماً. لم يكن واثقاً من نـــــزاهة النـــبوي حـــين تلقف الخبر، وحين كون لجنة غريبة لمتابعة تداعـــياته، وحين لم يكرمه حتى بكوب من الماء، وبالرغم من أنه جاء راكضاً لإخباره كما تعود في كل مرة يصطاد فيها خبراً أثناء تجواله في المديـــنة. إلا أنه أحس هذه المرة بشيء من عدم الارتياح. اتجه إلى بيته مجـــدداً، فتح الباب ذا الصرير، واستلقى على كنبة قديمة كانت جزءاً مهمـــا مـــن إرث البيت.. أرخى مثانته وقبضها عشرين مرة، استنشق

ثمـــانين نفساً عميقاً، وأخرجها من دون أن يسعل. عاد بذاكرته أربعين عامـــاً إلى الوراء، تذكر ثوباً أحمر ممزقاً في وسطه، كانت ترتديه امرأة، وطقـــم شـــاي من الخزف الملون كان راكداً في رف ما، وزجاجة من عطـــر الريفدور، سقطت على الأرض ذات يوم، وانكسرت.. وزهرة من زهور زنبق الصحارى، نبتت بقامة طفل ثم يبست.. تذكر أمه حين كانـــت تبكي بمناسبة وبلا مناسبة، وأباه حين كان يعشق نوم القيلولة حـــتى مـــات في إحدى القيلولات، وجارة اسمها سعيدة لم تكن أبداً ســـعيدة. أحس بمثانته قوية جدّاً، ورئتيه سلستين في التنفس، وذهنه قد صفا وعاد شاباً، نهض واقفاً، خرج مرة أخرى إلى الطريق وخبر كاتيا القادمة من بعيد، لا يفارق تفكيره، ولا يدري لماذا لا يفارق تفكيره.

الفصل الثاني

القصة بلسان علي جرجار

-1-

خرجت من عند حكيم النبوي عصر ذلك اليوم، وفي جانبي الأيسر بوادر لمغص ما، كانت في ذهني أشياء كثيرة أردت أن أنجزها قبل أن تأتي الفرنسية كاتيا وتضخ ذلك العطر الذي أنتظره بشدة، ولا أدري لماذا. أشياء تخصني، أشياء تخصها، وأشياء أخرى سأعثر على الذين تخصهم بكل تأكيد.. لم أكن أعرف شيئاً عن مشروعها العالمي، ولماذا اختارت له حيًّاً غائباً حتى عن ذاكرة المدينة. لم يكن يهمني بقدر وجهها الذي سأراه، عينيها اللتين قد تكونان زرقاوين، أو سوداوين، أو بلون جديد لم تألفه عيوننا، لهجتها التي قد تكون سليمة، أو مكسَّرة وبحاجة إلى ترميم، وقوامها الذي حتماً رأيت مثله في شريط سينمائي في درجة الشعب الرخيصة، في سينما الخواجة التي كنت أرتادها كلَّما مللت من عشق النساء المحليات: حواء، أمونة، سليمة العرجاء، فاطمة، جواهر، زهورات.. بائعات شاي الفقر، والخادمات، النازحات من إثيوبيا وتشاد، وتشرد الحروب الأهلية هنا وهناك، أولئك اللائي لا يجدن حتى مساحيق رامز الشعبية، ليصبغن بها وجوههن، ولا فساتين سلوى بوتيك التي كانت عقاباً سافراً، لا أزياء يفخر بها الجسد حين يرتديها. وحين كنت أتقدم زوجاً مخادعاً لإحداهن، أرى أسنانها تصطك، قدميها ترتعشان بشدة، وثمة بؤر من الشبق تتراقص في رماد عينيها.. مسكينات.. مسكينات حقيقه.

كنت فقيراً جدّاً في الواقع، فقيراً وجزءاً من منظومة الحي نفسه، ومنظومات أحياء أخرى في المدينة لم أعش فيها من قبل لكنني عبرتها. صادقت فيها أشخاصاً يشبهونني وأشبههم.. وتلوثت ببصاق مقرف كانت تفرزه بلا انقطاع. وحين اخترق أحدهم مرة جيب قميصي، واستولى على حافظة نقودي، لم أوقفه، ظللت أضحك ليلتين متتاليتين، وأنا أتخيل لصاً بلا خبرة، ينقّب في عشرين ثنية من ثنيات الحافظة القديمة، من دون أن يعثر على قرش. بالمقابل كانت لدي الذاكرة، تلك التي دربتها على أن تلمع، ولا ينطفئ لمعانها أبداً. أن تذكر غداء صنعته أمك من المرق والفاصوليا، وقدَّمته في وعاء مقشر من الطلس ذي حواف مذهبة، قبل خمسين عاماً، أن تذكر سراويل أبيك التي ارتداها متسخة، وبلا كي ليأخذك إلى أول يوم دراسي في المدرسة الأولية، أن تذكر معلمك الذي سقطت إحدى أسنانه أثناء إلقائه الدرس، ومعلمك الذي مات بالزائدة الدودية. تذكر ذبابة تافهة حطت في كوب شايك قبل خمسة وخمسين عاماً، أن ينساك حذاؤك القديم، يضيق عن قدميك، وأنت تذكر متى وكيف اشتريته؟ كانت ذاكرتي في الواقع، حقيقة معترفاً بها في الحي، ولدرجة أن الكثيرين كانوا يزودونني بتفاصيل أفراحهم أو أحزانهم التي يودون تذكرها في المستقبل البعيد، كي أعيدها لهم كاملة عند الطلب. حتى الجروح القديمة التي كانت تنتشر على جسدي من أيام عملي في صيانة القاطرات، كنت أعرفها، احتفظ في ذاكرتي بأسبابها وتواريخ ميلادها، ووفاتها حين تحولت إلى خدوش يابسة.

هكذا قيَّمت نفسي، أعطيتها عدة نقاط إيجابية..

قيَّمت حكيم النبوي أيضاً، باعتباره مطبَّاً قد يعوق طريقي، أو شوكة ربما تعترض البلع في حلقي، ولا أدري لماذا قفزت مباشرة إلى

ســـلبياته كمرض السمنة، وروماتيزم المفاصل، وضغط الدم، متجاهلاً شـــاعراً عربيداً كان يسكن بداخله، وزعيماً يحترمه الناس ربما أكثر مما يحترمونني. لم أقيّم أحداً آخر، لأن لا أحد آخر في رأيي، كان يستحق التقييم.

أحسست ببوادر المغص تتلاشى، وعافية غريبة تدب في الجسد.

ماشياً في الحي من حفرة إلى حفرة، ومن ماء آسن إلى ماء آسن، وعامراً بالأفكار نادتني إحداهن:

يا علي..

كانـــت ســـلافة الجميلة جدّاً، والتي كان صوتها في الماضي أغنية أطـــرب لها.. و"يا علي" التي تنطقها من فم عسلي، ترجني من أقصاي حـــتى أقصاي.. لم تكن من اللائي وعدتهن بالزواج وأخلفت، ولا من اللائي سمحن لي أو لغيري من أشقياء الحي، بتعقب فتنتهن إلى أكثر من الـــسلام ورد السلام.. كانت مثلي فقيرة لكنها تتفانى في هندمة زيها، وصياغة حياتها بما تستطيع ولا تستطيع. تعيش في بيت جدتها التي ربتها مـــنذ الصغر، وتعمل أحياناً في نقش الحناء للعرايس أو تفصيل الفساتين لنـــساء الحـــي، على ماكينة سنجر عتيقة. وقد ذكرت إحدى نشرات الأقاويـــل في الحـــي ذات مساء، علاقة تجمعها بواحد من تجار المدينة الكـــبار، تمنحه الجسد، ويمنحها المال، لكن الخبر لم يؤكد أو ينفى بعد ذلك.. وظلت الجميلة جدّاً، جميلة جدّاً في نظري ونظر الجميع.

يا جرجار..

ولم أطـــرب، اســـتغربت لأنـــني لم أطرب، واستنتجت في نفس اللحظة، أن خبر الموسيقى الفرنسية القادمة من بعيد، قد غير التذوق لا بد..

– ما خبر تلك الفرنسية يا علي؟

تـــسألني الجميلة جدّاً. وبرغم نظراتي التي حأولت أن أدقّها بعنف في وجههـــا المزخـــرف بالألوان، لأستخرج خامات الهيام، لا يتحرك بداخلـــي شيء.. لا رعشة أمسكت باليدين، ولا اهتزاز أصاب مقدمة الأنف، لا دقات سريعة للقلب، ولا حتى قرقرة لغازات في البطن كانت تعرف المشاعر جيداً، وتساندها عند الضرورة.

- خـــبر عـــادي يا سلافة.. تماماً كخبر عودة الكوسا إلى سوق الخضراوات. واحتضار صرصار في أحد البيوت.

قلـــتها وأنا أنسحب من أمامها. وإذا صدقت آمالي ربما أنسحب قريباً من بذاءات حي غائب، والعشق المحلي إلى الأبد، لكن الجميلة ما تزال واقفة، وشديدة الهياج، وتشدّني لأول مرة من ثيابـــي..

اخبرني يا علي.. اخبرني من فضلك.

ولم أخـــبرها.. ذلك ببساطة شديدة، أنني كنت لا أملك سوى ذلـــك الخبر الذي أحضرته غامضاً من المحافظة، وتركته لحكيم النبوي يلعب به، ويرميه إلى أقصى نقطة يمكنه الوصول إليها.

مـــن حفرة في السطح إلى حفرة قد تبتلع حافلة بركابها.. ومن ماء آسن إلى ماء آسن، وجدت وجهي ملتصقاً بباب أعرفه جيداً، باب حليمة قارئـــة المصائر، تلك التي اختارها حكيم النبوي ضلعاً في لجنته السداسية. يسمَونها في الحي حليمة المرضعة، ولم أعرف لها أطفالاً أرضعتهم، ولا حتى ثدياً يمكن أن يكون قد أرضع أحداً. على الحائط أعلى الباب كتبت وبخط رديء، عـــبارة بـــالفحم، تقول "أعطني أعطك" وكانت بلا شك شعاراً ملائماً لواحدة مثل حليمة، قد يشدك إلى طرق الباب وقد يطردك. الشعار شـــدني، فطرقت وكانت المرة الأولى لي في طرق ذلك الباب الذي يكاد أهـــل الحي كلهم وكثير من الغرباء، قد طرقوه على مدى سنوات طويلة، لكني لم أفعل.. خوفي من المصير دائماً ما يفر بـــي بعيداً.

علي جرجار؟..

تعكر وجه الإثيوبية زهورات أرتو التي كانت تعمل خادمة لدى قارئة المصائر منذ زمن طويل، وواحدة لم أدغدغ مشاعرها بطلب الزواج فقط، لكنني تركتها ترتدي فستاناً أبيض، وعقداً من القصدير أحضرته لها من توافه السوق. تركتها ترتدي حلماً دافئاً، ووهماً بحياة سعيدة بعيدة عن خدمة البيوت، وهربت في ليلة الزفاف.

- ماذا تريد يا جرجار؟.. ستموت قريباً بمرض الإيدز.. اذهب.

أرادت أن تغلق الباب في وجهي، أن تلغي قراءة المصير، ومنعتها بإزاحتها والدخول عنوة.. كنت في حاجة لتلك القراءة بشدة ولا أدري لماذا أنا بحاجة إليها.

مرتجفاً بعض الشيء وأحس بجفاف في الحلق، جلست أمام حليمة المرضعة، سلّمتها كفي اليمنى، وأغمضت بقية الحواس، ما عدا أذنيّ اللتين ستسمعان.. كانت حليمة في الواقع تملك وجهاً لا يغري بمتابعة تفاصيله، خاصة حين يبتل، أو ييبس، أو يتحول إلى وجه أفعى.. وكانت معروفة بصرختها التي تطلقها، حين ترى مصيراً بائساً.. آخ.. لا أريد تلك الصرخة.. لا أريد.. هممت بسحب كفي والانطلاق بعيداً، لكن كل شيء كان قد انتهى.. كتابي الآن مفتوح أمام المرضعة:

وبهدوء كاد يقتلني، همست:

- كفك عرقانة يا علي، زرعك نابت في ظهرك، وذات العينين الواسعتين، تراقبك من بعيد.
- وما لون هاتين العينين.. اخبريني؟

صرخت..

- أسكت

- وهل ستقترب؟
- حين تجفَ كفك من العرق، وتأكل بلا عسر هضم، تعال إلى هنا.. والآن اذهب.. اذهب.

وباقـتدار نـشال عـريق انتهكت جيبـي، عثرت على سبعة جنـيهات مـن ورق قديم ممتلئ بالبصمات والكتابة، أخذت نصفها وأعادت النصف.

كانـت الإثيوبية زهورات الآن واقفة مثل هاجس. وجهها مر، وآمالهـا التي تحطمت منذ وقت بعيد، جاءت مثل عاصفة، اقتلعتني من مكاني وألقتني في الطريق. لم أكن قد فهمت شيئاً، لا عرق الكف، ولا ذات العينين الواسعتين التي تراقب.. واستغربت حقيقة من تلك الهرجلة التي خضتها من دون وعي. كيف ينبت زرع في الظهر؟.. كيف تجفَ كـف هـي جافـة في الأصـل، ومشققة بفعل تقدم العمر ومرض الإكـزيما؟.. وأيـن عسر الهضم الذي لم أعرفه يوماً، حتى حين كنت آكل الحصى والتراب برفقة زملائي من عمال السكة الحديد؟

قلت للإثيوبية قبل أن تتلاشى وراء الباب.. بلهاء

قالت.. أعرف.. واختفت.

كانت الشمس تمضي إلى مغيب حتمي خلف الأفق. ثمة صبـي يتـبول على حائط كتب عليه: "ممنوع القرف من فضلك"، ثمة رائحة لعطـر نـسائي رخيص ينبعث من مكان ما، ثمة نباح ومواء، وصوت لأذان يأتي من بعيد..

حي على الصلاة.. حي على الفلاح..

الحفـر في اللـيل أشـد قرصنةً للخطوات، والمياه الآسنة ذات مناسبات وتواريخ ميلاد، هذه من ملابس كانت ملوثة بالشحم لواحد من عمال ورش الحدادة، هذه من مؤخرة طفل نام بلا حفاظات، هذه

مـــن بقايا شهوة لامرأة اندلقت جامحة، وهذه من غسيل نادر لجسد لا يغسل إلا نادراً. كنت أرفع ثوبـــي لأمر بأمان، وأتجه بأنفي إلى السماء حتى لا أشم.

يا علي.. ولا أحد أمامي.. يا جرجار.. ولا أحد خلفي.. يا علي يا جرجار ولا أحد عن يميني أو يساري. واكتشفت من تشابك الرعب في قلبـــــي واهتـــزاز ركبتيَّ، أنني أمام بيت آل مسيكة الذي كان في طرف الحي غير المأهول، وتسكنه إحدى عائلات الجن منذ جبلت أول طينة من طينه. لم يكونوا في الواقع خطرين أو مدمرين. لا سرقوا شاة ترعـــى، ولا كـــسروا قدماً أو يداً، ولا أقلقوا مناماً لطفل، ولا تعدوا حـــدود بيتهم إلى بيت أحد، لكنهم عرفوا بصناعة الخمور الجيدة، إذ يـــضع الـــناس خاماتها من تمر أو ذرة أمام الباب، ويستلمونها بعد عدة دقائـــق، خمـــراً طازجة وكان أغرب ما فيهم، أنهم يشمَون الغرباء عن الحـــي، وبعض الذين أرادوا التجارة بخمورهم، فلا يصنعون لهم شيئاً.. وقـــد حاولت السلطة بمعاونة الأمني موسى خاطرعدة مرات أن تقتحم ذلـــك البـــيت، تدمر مصنعاً للخمر كانت تتخيله يدار بعقول بشرية مكَارة، لكنهم دائماً ما يعودون بلا حصاد.. لا شيء سوى خرائب.. ووطـــاويط، وخيوط عنكبوت. وفي اليوم الذي جاءوا فيه بآلياتهم لذلك البـــيت، شـــلَّت الآليات جميعها أمامه، وفرَّت السلطة تاركة بيت آل مـــسيكة مـــصنعاً آثماً لا يقدر عليه أحد. وأذكر أن أحد أعضاء برلمان المديـــنة المحلي أثار مرة موضوع آل مسيكة في إحدى الجلسات، اقترح الاســـتفادة من خبرتهم الطويلة في تقطير الخمور بتحويلهم إلى عطَارين لـــصناعة العطـــور الفاخرة التي ستدعم الاقتصاد الوطني حتماً، لكن اقتراحه لم يقابل بالاستحسان، ومن ثم ضاع في تلك الجلسة.

عرق طازج يا علي.. من بلح الشمال يا علي.. بوظة يا جرجار.

وأسرعت الخطى فاراً باتجاه الضجيج.

وقفت أمام محل ترانيم الذي كان يملكه منعم شمعة تاجر الشنطة المسافر دائماً، أو العائد من سفر، وأحد أعضاء قائمة النبوي السداسية لمتابعة خبر الفرنسية. كان المحل عامراً ببضائع رخيصة من ملابس، وساعات وأحذية، وأصباغ للشعر، وأساور، كان شمعة يجلبها فيما مضى من بلاد الخليج وتايوان، وسوق رفسة الشعبي في العاصمة. وحين انفتح عقل الصين مؤخراً، وانفتحت شهيتها للتجارة العرجاء، وشدَّت إليها طلاب الغش والثراء السريع، لبى شمعة النداء، وكان أول مواطن من حي غائب، تحمله طائرة إلى ذلك المكان. كان قد سمى المحل عند افتتاحه، تلاقيط ثم عاد وغيره إلى "رخيص وغالي". ومنذ عدة أسابيع فقط، صادف في إحدى سفراته مضيفة جوية من أحد بلاد الشام، اسمها ترانيم، وبالرغم من أن المضيفة لم تمنحه حتى سنتمتراً إضافياً من ابتسامتها التي خصت بها الركاب جميعاً كما ذكر في إحدى الجلسات، إلا أنه لوى لسانه ليتحدث لهجتها، ويغني لها أغنية من أغنيات فيروز، أطلعها على صورة مهتزة تجمعه بتمثال الزعيم الصيني ماو، أهداها ساعة إيبل مقلدة، وعطر كوكو مقلداً أيضاً، وعاد مبهوراً ليكتبها اسما لمحله.

كان شمعة موجوداً في تلك الأمسية، لقد عاد بالأمس، وربما يسافر غداً، أو بعد غد، سيجارته محترقة حتى نصفها في فمه، وبين يديه عدد من الخواتم ذات الفواريص الخضراء، والزرقاء، والبنفسجية، يروّجها لامرأتين من نساء الحي الفقيرات، كنت أعلم تماماً أنهما لن تشتريا.

- صدقاني.. اشتريتها من نفس المحل الذي تشتري منه الأميرة خلود حليّها.

سألته إحدى المرأتين، وهي تحاول أن تنتزع خاتماً من يده، لتجربه على إصبع يابس ومشقق:

- من هي الأميرة خلود يا منعم؟.
- سيدة جامايكا الأولى..

قالها شمعة ولم يضحك أو يبتسم.. أو يبدو غشاشاً يدير صفقة كاذبة. انتبه لوجودي بغتة على باب محله، أعاد خواتمه إلى موضعها تحت الزجاج، وقال للمرأتين.. فكرا وعودا غداً.. المحل مفتوح دائماً، وفي خدمة الجميلات، ثم صاح:

- تعال يا فرنسي..

وكانت عبارته تأكيداً سافراً على أن الخبر قد وصله، واخترق أذنه حتى القاع. وعلى عكس ما توقعت، لم يبد شمعة مغرماً بتقصي الخبر إلى أبعد من كونه خبراً، ولا النبش في مستقبل الحي حين تقطنه فرنسية نجمة. كانت سيجارته تحترق حتى نصفها في فمه، ثم تسقط لتنبت أخرى مكانها. يتحدث عن الصين كما يتحدث عن مارد أسطوري. يصف شارعاً كله إبر للخياطة، شارعاً كله خيوط لتلك الإبر. يصف غرف النوم والجلوس المصنوعة من خشب الزان والمهوقني، وحتى من البلاستيك المقوى، وأدوات الطبخ والطائرات التي رآها هياكل من حديد، ثم عاد في اليوم التالي ليجدها طائرات. يفتح ألبوم الصور في هاتفه المحمول، يريني ساحة تيان آن مين، وقد غصّت بسائحات أوروبيات، يرتدين الجينز والرغبة، يريني مصنعاً لأغطية الرأس اشترى نصف بضاعته بعدة دولارات فقط، وآخر للحواسيب، ينتج حاسوبين في الثانية. سألني عن عقار الساتيبو المهيج للغرائز، والذي ينتج هناك، ولم أعرفه، سألني عن قياس الخصر الشائع لدى الصينيات، ولم تكن لدي فكرة، عن شعوري الشخصي

حـــين تـــدلكني واحـــدة بنعومة الحرير وطراوة المسك، و لم أعرف لأنـــي لم أجـــرب. وحين سألته عن صورة التقطت خلسة لواحدة بـــزيّ أزرق، تـــنحني على الأرض لتلتقط شيئاً ما، انفرجت تعابير وجه..

- هـــذه ترانيم المضيفة.. الرحلة رقم صفر.. تسعمئة وعشرين، دبـــي.. بكين بلا توقف.. آخ يا جرجار.

انحنى على رف تحتي في محله، أخرج قارورة لعطر نظيف، رشه في وجهي وهو يهمس:

- - أليس عطر كوكو الأصلي؟

و لم تكن لدي فكرة أيضاً، كانت ثقافتي العطرية قد توقفت منذ عهـــد بعـــيد، و لم تـــتجاوز عطور الصاروخ والريفدور، وعطر بنت السودان الخبيث.

فجـــأة اخترق وقفتنا الأمني موسى خاطر، سمعنا ضجيج دراجته النارية ساخناً، ثم جهازه اللاسلكي، يحكي شفرة عن صيادين سكارى يحلبون تيساً بستة قرون، وعنـــزة ذات أجنحة سوداء تطير وتحط، ونهر صـــغير بدأ يتحول إلى بحر. التفتنا كلانا إلى مدخل المحل، لنرى موسى خاطر يدخل بتلك النظرات المتلفتة الحذرة التي قيل إنه تعلمها في مكان مـــا، حـــين كانـــوا يعدونه أمنياً لينغرس في حي فقير. لم يلق السلام وخاطب شمعة مباشرة..

- هل أحضرتها؟

- نعم.

رد شمعـــة، ومـــضى إلى إحـــدى خزائنه الزجاجية. أخرج علبة متوســـطة الحجم، ملفوفة بقصدير أحمر، سلَّمها للأمني الذي أسكنها جيبه وهو يبتسم، وفي طريقه للخروج التفت إليّ..

- موعدنا غداً يا جرجار.. السادسة صباحاً في بيت النبوي.. لا تنس أن تحضر معك شاياً وبنّاً وزنجبيلاً. لا يوجد اجتماع بلا صداع.. سلام.

لم يضحك حقيقة، لكنني خلته ضحك بمئة حلق، ولم يضف حرفاً آخر لكنني خلته أضاف حروف الدنيا كلّها.

رن الهاتف الجوال لشمعة بغتة بموسيقى صينية فيها أصوات عصافير، وإيحاءات جدول رقراق، شاهدت رأسه يتمايل مراراً قبل أن يرد على المكالمة التي كانت فيما يبدو من شريك أو تاجر زميل لأن كلمة صفقة ترددت عدة مرات أثناء الحديث. وحين انتهت المكالمة سألني:

- هل تريدها نغمة لهاتفك يا جرجار؟

قلت: لا.. هاتفي بلا رصيد في الوقت الحالي، وقد يظل هكذا لوقت طويل.

غادرت محل ترانيم وأنا مقتنع أشد القناعة بعدم صلاحية النبوي حتى لرئاسة سوق مكتظ بالحمير. حليمة قارئة المصائر التي اختارها، تبدوغير عابئة حقيقة، ولم تسأل حتى عن الخبر. شمعة تاجر الشنطة، عقله في الصين، وجسده يترنح بين المطارات جيئة وذهاباً. موسى الأمني في قلب الحدث، ويعرف حتى عدد الكريات الحمراء، والبيضاء في دم النبوي، وغيره من سكان الحي، والآخرون لن يكونوا أشد ثقلاً لملء أي فراغ. ثم في النهاية لو كانت تلك الزيارة المرتقبة رسمية، أو حتى شبه رسمية، إذن لكونت السلطة لجانها وتفرعات لجانها، وتفرعات تفرعات لجانها، ولابتل حي غائب المسكين، بآلاف الإفرازات الغريبة. سذاجة أطفال.. هكذا قلت في نفسي، لكنني سأذهب وأجتمع، وربما أضحك في سري حين أجد الأمني موسى جالساً في قلب

النـــبوي ومـــصارينه، يحرك الأمور في اتجاه سفيه، أو يتخذها مادة لتقرير جديد.

انتبهت إلى أن عيادة اللورد سيف مضاءة، وهي التي ظلت مظلمة لعامين كاملين إثر وفاة مؤسسها الدكتور سيف خليفة بمرض مفاجىء. كانت العيادة الوحيدة في حي لا يغري طبيباً بافتتاح عيادة فيه، وحين جـــاء ســـيف منذ عشر سنوات إثر عودته من اغتراب طويل في بلاد الـــيمن، طـــاف في الحي بعربته اللادا وقرأه بعينيه وخبرته، لم يفزع أو يفـــر، استأجر بيتاً في وسطه، وصمم عيادة غريبة لم تقل لفقير اذهب، ولا رفـــضت مداواة مغص كلوي، أو استفراغ أمعاء لأن صاحبه بلا مال.. كان سيف في الواقع طبيباً فريداً، إخاله لم يكسب قرشاً واحداً مـــن حي غائب، لكنه كسب مودة من الجميع، سموه اللورد سيف.. انتهكوا حتى قيلولاته، وموائد غدائه، وعشائه في حي البساتين في قلب المدينة حيث يقيم، وبكوه بمرارة حين مات بمرضه المفاجىء، وقد ترك صـــاحب البيت برغم حاجته إلى المال، تلك العيادة هكذا، لم ينـــزع اللافتة، ولم يحولها إلى سكن. استغربت من تلك الإضاءة ورفعت عيني لأقرأ بحروف واضحة.. "عيادة الدكتور أحمد سيف خليفة".

إذن فقد جاء شبل جديد من أسد قديم.

لورد حديث من لحم لورد رحل.

كانـــت الرائحة التي شممتها بغتة، جارفة بشدة. إنها رائحة عطر ماكسي الذي يستخدمه الصبـــي أيمن داؤود الشهير في الحي بـــ "أيمن الحـــضاري". كـــان صبياً يدرس في إحدى المدارس الثانوية في المدينة، لكـــنه أيـــضاً عـــرف سكة التكنولوجيا والإنترنت ومواقع الدردشة، واكتـــسب ثقافة كبيرة كان يبهر بها أهل الحي في كل مناسبة.. وعن طـــريقه عرفنا كلنا ماذا تعني كلمات مثل ياهو، وجوجل، والمسنجر،

وماذا يمكن أن يضم موقعاً مثل يوتيوب أو الإخوة أونلاين. ولا أنسى ذلـــك الـــيوم الذي جاء فيه يتقافز بنشوة، حاملاً صورة مبتسمة لمغني الـــبوب الشهير ألتون جون، مذيلة بتوقيعه، ومهداة إلى أيمن.. صديقي مـــن منطقة غائب في بلاد نهر النيل. لم يحسده أحد في ذلك اليوم، و لم ترتسم أي غيرة على الوجوه، كان مستر جون، وكل تلك الأسماء التي رسمت هالاتها وضياءها في أماكن بعيدة، لا تعني شيئاً في حي كغائب. كانت مجرد أسماء لا أقل ولا أكثر.. وإخاله لو جاء بصورة لـــ "كبري" لاعـــب كـــرة القدم المحلي، أو نواس الذي يصنع أعظم طبق فول في المدينة، أو حتى راقصة الزار عالية طقطوق، لصفق له الحي كله.

خاطبني أيمن الحضاري مباشرة..

– أخيراً نشروا الفيديو المحرم. نشروه في الـــ "يوتيوب".

سألته بفضول:

– أي فيديو محرم؟.

– ذلك الذي التقطه عشيق الراقصة جوهرة بكاميرا مخبأة، حين كانت عارية في أحضانه، وسرق وسرب من قبل أحد الخدم.. شريط خطير.. خطير جدّاً.. لا بد أن تشاهده يا جرجار.

في الواقع لم تكن لدي أدنى فكرة عن تلك الواقعة، لا سمعت براقصة اسمهـــا جوهـــرة، ولا بشريط محرم التقطه عشيقها، وما أحسست به تلك اللحظـــة كانت رغبة جارفة في شد الصبـــي من أذنه، وتجريده من تلك الـــشيطنة. وبالرغم من أنني لم أكن أباً ولا جدّاً، ولا كنت سوى نموذج شـــيطان مـــن جـــيل قديم ما زال يمارس الشيطنة، إلا أنني أحسست بأنه أهـــانني، أهان عمري المديد و لم يعطه حقه، أهان عمامتي على رأسي و لم يجعلـــها عمامـــة لكـــبير. تمالكت نفسي حين تذكرت جوانب إيجابية في سياحة الصبـــي حول العالم في ذلك الفضاء الافتراضي.

- حسنا.. ما رأيك في خبر الفرنسية التي ستزورنا؟

رفع أيمن أصابعه إلى رأسه ربما ليحكه، أو يهش بعوضة طنانة:

- غدا أعطيك انطباعي.. بعد أن أعود من الإنترنت كافيه.
- وهل ستأتي في الصباح إلى بيت النبوي لحضور الاجتماع؟
- لا.. عندي مشاغل عديدة.. سلام

انفلت من أمامي بسرعة، ليظل عطره الماكسي عابقاً في أنفي لثوان. كان يتيماً، مات أبوه في حرب الجنوب، قبل أن يولد، وماتت أمه وهي تلده، ورباه حي غائب كلّه، لكنها تربية بلا قواعد.. أن يأكل ويشرب، ويضع رأسه على وسادة متسخة لينام، وربما قروش قليلة من هنا وهناك لتنقلاته إلى وسط المدينة، ولا شيء آخر. وكانت غزواته للكمبيوترات والإنترنت، بلا تكاليف، إنها الدعم الوحيد الذي قدمه عبد الله جنّي صاحب كريزي كافيه في سوق المدينة، لواحد يتيم من حي غائب.

فتحت باب بيتي، فأزعجني صريره لأول مرة، أحسست به عائقاً محتملاً، ربما يتآمر ليفسد حضارة أريد أن أتحضرها، أسرعت إلى مطبخي الذي كان ركناً مبعثراً في البيت، أحضرت قليلاً من الزيت أخذت أصبه على مفاصل الباب حتى سكن توجعها، الآن أملك باباً سلساً، باباً ينفتح وينغلق من دون وعكة، واستغربت كيف ظللنا كل تلك السنوات نحترم أبواباً بكل تلك البذاءة؟.. في ذهني الآن خطة أخرى، سأطوف في القريب العاجل على كل أبواب الحي، أزيّت مفاصلها، وأغير من تلك الثقافة التي أعتبرها الآن ضحلة. رنَ هاتفي المحمول رنة مبتورة، أو مكالمة ضائعة كما تكتب الشاشة، فتحتها لأجدها من عديلة.. من هي عديلة؟.. ما أوصافها؟ ما مدى صلتها بي؟ وهل هي امرأة أخرى تستعد للزواج من رجل مزواج باللسان

فقـــط؟.. لا أدري.. ولأول مـــرة في حياتي تضيع مني أنثى كنت قد كتبتها بيدي في هاتفي المحمول.. رنت عديلة مرة أخرى.. وهاتفي بلا رصيد، مرتين أخريين وبلا رصيد.. هذه أيضاً ثقافة نعتز بها، أن تملك هاتفاً محمولاً ربما تستدين سعره، تنتقيه من ماركة شهيرة كـــ "نوكيا" أو سامـــسونج، تطوف به مباهياً، تشتت رقمه هنا وهناك، ودائماً بلا رصـــيد.. لم يكن الأمر مقتصراً على حي غائب الفقير فقط، لكنه وباء عـــام في كـــل البلاد أشبه بوباء الملاريا والتيفود، ولدرجة أن إحدى الصحف المحلية، حررت مرة ملفاً كاملاً عن ذلك الوباء، سمته "أحتاج إليك بلا رصيد" واستطلعت آراء عدد كبير من المشاركين الذين أيدوا تلك الثقافة، وأوصوا بتعميمها على العالم أجمع. وأذكر أنني التقيت في العام الماضي بمتأنق من مصر يعمل في إدارة أحد الفنادق الكبرى بمنطقة الخليج، كان اسمه رأفت عبد التواب وكان مهذباً حتى حين يسعل، أو يطالع ساعته ليعرف الوقت. جاء إلى البلاد بحثاً عن عمال يفهمون في فـــن الضيافة وري الحدائق وقيادة سيارات الليموزين، ليلحقهم بفندقه الراقي. كان هاتفه يرن رنات مبتورة بلا انقطاع، واكتشفت أن المدينة كلّهـــا ترن بلا رصيد لرجل ضيف أعطى رقم هاتفه لبعض الناس نوعا من التواصل.

لم أكـــن من هواة تأمل الصور التذكارية التي تمثلني في مرحلة ما، من مراحل العمر، أو تجمعني بأشخاص عرفتهم ذات يوم وضاعت تلك المعرفة في بحر الحياة الكبير، لكنني وجدت رغبة ملحة تدعوني إلى النبش في خـــزانة مغبرة واستخراج عشرات الصور، لقراءة تذكاراتها في ذلك المساء المشحون.. فردت الصور أمامي وأخذت أتأملها بعمق.. هذه مع دردر قائـــد القطـــارات الذي مات في حادث خرجت فيه قاطرته عن ســـكة الحديد.. هذه مع الخضر، منسق الحجوزات في الدرجة الأولى،

الــذي ظل يحصد لقب شخصية السكة الحديد السنوي، منذ أن أطلق وحتى اندثر، لا لشيء سوى أنه وجد أماكن لتسعة عسكريين في قطار لــيس فيه مكان لشخص واحد، تحرك ذات يوم من مدينة جيبا التي بها كتيــبة جــبارة من حرس الحدود، ولم يكن يدري أنهم كانوا أعضاء مجلس قيادة لثورة جديدة، اندلعت بالفعل في العاصمة بمجرد نــزولهم من القطار، هذه مع زكريا حنقة الذي كان ناظراً لمحطة المدينة، وأصبح فجــأة وزيراً للنقل والمواصلات في حكومة استمرت لثلاثة أيام فقط.. هــذه مع المقدم عادل التولة أعظم ضباط الشرطة على الإطلاق، حين كــان ملازمــاً في شرطة السكة الحديد وكانت بمناسبة ترقيته إلى رتبة النقــيب.. هذه مع الرحالة المقعد حاكم عذابو مؤسس حزب "وطنك الكــبير" الذي أفخر بانتمائي إليه، بالرغم من بقائه حزباً مغموراً، بلا أعــضاء، ولا بــرامج ولا خطط، وكانت في الذكرى الثالثة لتأسيس الحــزب.. هــذه.. هــذه. وحين وصلت إلى صورة تجمعني مع مغنية الأفــراح الــشهيرة حواء سخطة في عرس أقيم مرة في حي السلاليب الــشعبــي أيضاً، لم أبتهج.. ولم أحس بحواء غير تاريخ متخلف أيضاً عليه أن يموت الآن. مزقت الصورة وألقيتها على الأرض.. ليظل مكانها خالياً في ألبوم الصور، ربما لتشغله فيما بعد صورة أشد جاذبية.

فجــأة سمعت طرقاً خفيفاً على الباب.. ليس مألوفاً لأذني فقد كــنت أعرف كل الذين يطرقون بابــي من طريقة طرقهم. أعرف الطــرق المــريع للأمني موسى خاطر حين يكون دفتره بلا تقارير، ويــسعى إلى تلفــيق تقريــر ما، الخشن والمتعجل لــ "منعم شمعة" المــسافر، أو العائد من سفر، الناعم جدّاً للجميلة سلافة حين تأتي لاستشارتي، أو استفزازي، الذي تحدثه عصا الأبنوس السوداء في يد حكــيم النبوي.. وحتى طرقات الأطفال حين يطرقون بلا هدف،

كـنت أعرفها. فتحت الباب فانفتح سلساً بلا صرير، وشاهدت في الضوء الخفيف لكهرباء الشارع، الطارقين وقد ارتفعت حواجبهما دهـشة.. كانـا شاكر تعيس الذي لم يذق ماء زمزم حين جاء إلى الحي بعبوة شاحنة، ونهل منها الجميع، والقبطي ميخا ميخائيل الذي سـكن في الحـي منذ عامين فقط بعد أن هاجرت عائلته كلّها إلى أستراليا، وبقي هو في المدينة، بحجة كثافة الذكريات التي لا يستطيع تركها خلفه ولا يستطيع حملها معه. كان يصرخ في كل ركن يجد فـيه آذاناً تستمع إلى الصراخ.. قبر أبـي ميخائيل دقندس، مقهى روماني اللذيذ.. الأب مكارس الذي يحتاجني في شيخوخته.. كنيسة العـذراء التي شاركت في طلاء جدرانها بالأبيض.. حبـي الأول.. حبـي الأخير.. آخ.. كيف أترك كل هذا وأذهب؟ هل جننتم؟.. كيف أتركه؟

- باب بلا صرير؟

هتف شاكر تعيس، وحاجباه ما يزالان مرتفعين..

- نعـم بـلا صرير.. وغداً ستكون أبوابكم كلّها بلا صرير.. أدخلا..

دخلا إلى البيت، ونظرات تعيس ما زالت تشتم الباب غير المحترم في ذلـك الحي الذي لم يشذ فيه باب أبداً من قبل، جلسا على الكنبة القديمـة الـتي لم تكن مستعدة لحمل ثقلين، فاهتزت.. كان تعيس في الغالـب قد جاء لتقصي خبر الفرنسية القادمة من بعيد، لكني لم أجد سبباً واحداً يأتي بقبطي رفض هجرة عادلة ومتحضرة، من أجل رفات، ومقهـى تافـه، وكنيسة آيلة للسقوط، بينما تقاتل كل أقباط المدينة والمدن الأخرى، حتى ينالوها.

- نعم.. خير..

قلت كاسراً صمتاً أحسست به قد يطول، ومفتتحاً جلسة لم تكن من ضمن جلساتي المفضلة، خاصة في ذلك اليوم حين بدأت تغيير بعض الثوابت في حياتي التي كانت كلّها ثوابت بذيئة.

- في الواقع، يريد الأخ ميخا أن تصنع له معروفاً لن ينساه لك.

تلعثم تعيس، بينما كان رفيقه صامتاً وإحدى قدميه تهتز.

- معروف؟.. أي معروف؟
- يـــريدك أن تقدمه إلى الفرنسية كاتيا كادويلي حين تأتي إلى الحـــي.. يريد الهجرة إلى فرنسا.. سيكمل تعلمه آلة الأورج ويصبح عازفاً محترفاً.. و..

قاطعـــته مستغرباً، وملتفتاً إلى القبطي الذي احمرت إحدى عينيه فجأة، وبدأت قدمه الأخرى تشارك في الاهتزاز.

- وقـــبر أبـــيك ميخائيل دقندس؟ ومقهى روماني اللذيذ؟.. وكنيسة العذراء التي شاركت في طلائها؟، وشيخوخة الأب مكارس؟
- حدثت تطورات يا أخي.

رد القبطي.. في توتر..

- تطورات؟
- نعـــم.. تطورات كثيرة.. قبر أبـــي، أزاله السيل الأخير ولم أعثـــر علـــيه أبـــداً.. مقهى روماني اشتراه أحد المستثمرين الأجانـــب، سيحولونه قريباً إلى مصرف.. كنيسة العذراء رفع عـــنها الـــدعم الـــبابوي مؤخراً بسبب سوء حالتها.. وغالباً ستهدم هذا العام.
- والأب مكارس؟
- مات بالأمس.

تأملـــت القبطي ميخا ميخائيل دقندس في جلسته المهتزة تلك.. كـــان قد تجاوز الستين بلا شك، شعره أبيض، حاجباه أبيضان، وجهه ممتلـــئ بـــبقع الدهن والبهاق، وثمة دموع حقيقية تسعى للخروج من عينـــيه.. كـــان مـــسكيناً بلا شك.. لا زوجة، ولا عيال.. والآن لا ذكريات يعض عليها بعد أن ضاعت الذكريات.. ولم أستغرب أبداً من طلبه أن أقدمه إلى خيال لم ألمسه بعد، إلى فرنسية لا أعرف حتى قياس نعلـــيها.. أو صبغة الشعر التي ستظهر بها في الحي.. كان في الواقع أملاً خائر القوى من رجل بلا آمال.

- وأستراليا.. لماذا لا تذهب إلى عائلتك هناك؟
- لا أستطيع يا أخي.. لقد بصقت على أوراق الهجرة في حضرة القنصل حين قدموها لي، وصنفوني ممنوعاً من الدخول إلى الا بد.
- حسنا.. سأقدمك إليها بعد أن أقدم نفسي أولاً.. لا تحزن.

قلـــتها تطييباً للخاطر، لكن القبطي ورفيقه تعيس، تلقياها ضوءاً إيجابياً، رأيتهما ينهضان مبتسمين، يشدان على يدي بقوة، ويتجهان إلى الـــباب الذي انفتح بلا صرير، لكن لم تكن هناك أي دهشة، أو عدم احترام لباب شفي أخيراً من وجع المفاصل.

-2-

السادسة صباحاً، توقيت الثورات والانقلابات، واختفاء جرائر التذكر في النفوس، وتوقيت موسى الأمني في رياضته اليومية العنيفة، حين اقتربت من باب حكيم النبوي لأرى ماذا سيحدث في اجتماعه المرتقب و لم أكن أحمل شاياً ولا بنا ولا زنجبيلاً لأن بيتي بلا شاي أو بن أو زنجبيل. كانت الشمس قد بزغت نصف بزوغ. في الهواء رائحة لحليب مر وصندل محروق ومن بعيد تبدو قافلة من النساء البدينات تسير على مهل.. صوت خشن من أحد البيوت: افتحي النافذة.. افتحيها بسرعة، صوت ناعم من وراء ضحكة: فتحتها.. فتحتها. صوت طفولي.. لا أملك قلم رصاص، ولا مسطرة يا أمي.. صوت أمومي.. خذ من زميلك.. اذهب.

في مثل هذه الساعة أبدو دائماً في قمة الاستيقاظ، ذاكرتي المدربة على الصفاء تبدو حاضرة، وقدماي اللتان تجيدان المشي حتى الآن، تمشيان بلا تعب. في إحدى السنوات حاولت أن أقلد موسى خاطر، أركض ركضه الصباحي، وأنا ارتدي حذاء صينياً رخيصاً اشتريته من ترانيم. لكنني تعبت بعد عدة دقائق، واكتشفت لاحقاً أن رياضة موسى الصباحية كانت في باطنها شمّاً متقناً لعورات الصباح وليست رياضة صرفة. وفي العام الماضي، وحين جاء الرحالة حاكم عذابو إلى المدينة ليلتقيني ويطمئن على استمراري في عضوية حزبه، همس في أذني.. هل تعرف ضباطاً أحراراً في الجيش لنعتمد عليهم في إشعال ثورة

صباحية؟.. ارتعبت بشدة.. لكنني اعتبرتها مزحة من رحالة مشلول لم يجـد له مقعداً في السياسة إلى الآن. دققت في رمل الطريق بحثاً عن اثر لحذاء الأديداس الذي يستخدمه الأمني عادة حين يركض، لكن لا أثر، دققـت أكثر في بزوغ الصباح بحثاً عن واحد من أعضاء لجنة النبوي الـسداسية، لكن لا أحد، لعلهم سبقوني أو لعلي سبقتهم، لا أدري. علـى بـاب بـيت النبوي توجد كتابات كثيرة، بعضها بخط صبيان يكتـبون علـى كل باب، بعضها بخط ناضج يعرف ما كتب.. قرأت "زوزو الرهيبة.. أحب سلافة الجميلة.. قرأت.. "نوم العافية يا نائمين"، وقرأت.. "قلبـي في بيت آل مسيكة".. "أعشق خمور الجن.. وبناتهم اللذيذات". طرقت الباب فانفتح بعد عدة دقائق، ليطالعني أحد ولدي النبوي، وكان نائماً تماماً، لأنني سمعت شخيره قوياً وحاداً..

- الاجتماع تأجل يا عم.. مع السلامة.

لم أستوعب عبارته أو لعلي لم أتوقعها. مددت يدي وطرقت مرة أخـرى، وفـتح هذه المرة صبـي أكبر، وكان في أشد ساعات النوم حلباً للمتعة.. كان يتأوه وينتفض ويده اليسرى على أسفل ثوبه:

- الاجتماع تأجل يا عم.. مع السلامة.

شعرت بعسر هضم في أذني، طرقت للمرة الثالثة، ولم يفتح أحد. أخـرجت هاتفي المحمول لأستخدمه بطريقة "أحتاج إليك بلا رصيد"، لكـن النـبوي رن بمكالمة هي أيضاً بلا رصيد. ظللت أرن بلا رصيد، والنـبوي يـرن بلا رصيد، حتى يئست ويئس النبوي كما يبدو، لأن الـباب انفتح في النهاية، ووجدت الرجل الضخم الذي أقعده روماتيزم العظام مؤخراً، يتكئ على عكازتين مشققتين وهو يصرخ:

- الاجـتماع تأجـل لأسباب طارئة.. تعال في الغد، ولا تنس الشاي، والبن والزنجبيل. لا توجد اجتماعات بلا صداع.

هممت أن أسأل عن تلك الأسباب الطارئة التي تجعل زعيماً مثل النبوي يستغنى فجأة عن زعامته أو يؤجلها إلى يوم آخر، لكن القلعة انسدت في وجهي ووجدت نفسي أرن لأعضاء اللجنة الباقين بلا رصيد.. ويرنون بلا رصيد.

كان دكان عركي، محلاً صغيراً في وسط الحي اعتدت أن أستلف منه حاجياتي اليومية، ريثما أقبض معاش السكة الحديد، أو يصلني ذلك المبلغ الشهري الذي يرسله ابن أخت لي يعمل عاملاً للنظافة، في إحدى دول الخليج. كان عركي طيباً وصبوراً، وواعياً فقر البيئة، ومستعداً حتى لتسليفي حذاءه اللامع حين أحتاجه في مشوار خاص، وابتسامته الطرية حين أجيئه عابساً ومهموماً، وفي إحدى السنوات حين وصلت ديوني عنده مبلغاً أحس به قد يجرح طيبته وصبره، ويضطره إلى إغلاق دفاتره في وجهي، راسل إحدى الجمعيات الخيرية التي تنطلق من إحدى دول الخليج، وتعمل في البلاد، حدثهم عن سجين سابق اسمه جرجار خرج من السجن معدماً وتائباً، ويريد العيش نظيفاً إلى الأبد، لكنه يحتاج إلى بداية، وكان أن استلم من تلك الجمعية بدايتي المزعومة التي كانت ديونه كاملة، ومبلغاً إضافياً مكنني من أخذ حاجياتي من دكانه لعام كامل من دون وجل، أو مراقبة لخطه الركيك وهو يركض بين سطور دفتره.

كان عركي موجوداً في نشاط الصباح كعادة تجار الأحياء البعيدة، منكبّاً على إحصاء بعض القطع المعدنية التي غالباً ما كانت حصيلة شراء لمتسول، حين وقفت أمامه، بادرني بابتسامته..

- صباح الخير يا جرجار، هل من جديد في موضوع الفرنسية كاتيا؟

- لا.. ليس بعد.

- دعهـــا تمـــر على محلي حين تأتي.. عندي عسل يمني، وزيتون إســـباني، وحفاظات نسائية من ماركة، أولويز.. وقد أضيف بعض العطور الغالية عند الطلب.

ضـــحك، وانتبهت إلى أنني لا أعامل في الحي ناقلاً عادياً لخبر قد يصدق وقد يخيب، ولكن مالكاً فعلياً للخبر، وصاحب امتياز في تأطيره حين يتحول إلى واقع. أطربتني تلك الصفة، ومن ثم كنت متعالياً، حين طلـــبت رصـــيداً لهاتفي، وحاجيات عادية، وهممت بالانطلاق لكنّ عركي استوقفني:

- انتظر.. عندي مفاجأة.

رأيـــته يـــتجه إلى عمق دكانه حيث يحتفظ بالبضائع الواردة قبل تعـــريتها وعرضها في الواجهة، يعود حاملاً لوحاً مستطيلاً من الخشب مغطـــى بقماش أبيض، وحين أزاح القماش أمامي.. وجدت لوحة من تلـــك الـــتي تعلق على واجهات المحلات، مكتوب عليها بخط عريض وباللغتين العربية والانجليزية:

بقالة كاتيا.. Katia grocery

وقبل أن أندهش.. قال عركي..

- ســـأعلقها علـــى محلي حين تأتي صاحبتك، وستجد محلات للخـــياطة واللحم والخضر والفواكه، تحمل اسمها كذلك.. لقد صنعنا كل ذلك بالأمس حين سمعنا بالخبر.. هل الخط جيد؟

في الـــبداية لم أرتح لذلك التطور، الذي حدث في الحي من دون معرفتي أو مشورتي، لكنني ما لبثت أن اعتبرته احتفاء ناضجاً من أولئك الـــذين يملكون قليلاً من خامات الاحتفاء. ولا أظن أن كاتيا حتى لو كانـــت نجمة شهيرة كما آمل، ستضار من ظهور اسمها عنواناً لمحلات

يرتادها المهمشون في حي ستقيم فيه فترة من الوقت. بل على العكس قد تطرب بشدة. وبعد برهة من التعمق في التفكير، أصابني بعض الإحباط، فلم أكن أملك محلاً أسميه كاتيا. ولو كنت ما أزال في خدمة السكة الحديد، ربما أطلقت اسمها على قاطرة مكتملة الصيانة.. ليس مهماً.. ليس مهماً.. قلت في نفسي، سأعثر حتماً على امرأة حامل ببنت اسميها كاتيا، أو شارع نظيف بعض الشيء، أطلق عليه اسمها. عدت إلى عركي، أضفت إلى شرائي فرشاة جديدة للأسنان، وصابونة من ماركة زست.. وكانت المرة الأولى منذ خمسة أعوام، أجدد فيها فرشاة أسناني، والمرة الأولى التي أشتري فيها مثل ذلك الصابون. حين وصلت إلى بيتي أخيراً، كان الحي كله قد استيقظ، ارتفع النشيد الصباحي لحناجر تلاميذ المدرسة الابتدائية، خرج العاملون إلى أعمالهم والمتبطلون إلى الشوارع يساهمون في ملء ضجيجها، شاهدت ميخا ميخائيل منكس الرأس وفي يده زهرة بنفسجية، زهورات الإثيوبية تحمل سلة من السعف مليئة بالحاجيات، أيمن الحضاري، ينحشر بسرعة في حافلة مكتظة، متجهة إلى وسط المدينة، المغني فرفور صاحب أوبريت العمامة، يترجل من سيارة للأجرة وفي يده عوده القديم، وعلى باب بيتي كان موسى خاطر يجلس على دراجته المطفأة مشعلاً سيجارة رخيصة.. دهمني بلا مقدمات:

- لماذا اخترت فرشاة أسنان حمراء يا جرجار؟.. الأخضر هو رمز الوطن..

وانتبهت وأنا أقلب في كيس حاجياتي التي اشتريتها، أو بالأحرى استدنتها منذ خمس دقائق فقط، أن فرشاة أسناني كانت بلون أحمر. لم أرد على موسى الذي أشعل دراجته ليمضي، لكنني لمحته يكتب شيئاً ما على ورقة صفراء.

في البداية كانت جريرة تزييت مفاصل أبواب البيوت، ومحو أوجاعها شاقة للغاية. استقبلت الفكرة باستهجان عنيف برز في عدائية الأصوات، والضحك المتواصل لكبار السن، ونواح النساء على صرير بيوتهن الذي يود معتوه أن يزيله. كنت قد استعنت بشاكر تعيس الذي أقنعته سلاسة بابي حين شاهده يفتح ويغلق، والجميلة جداً سلافة، لأن كثيراً من الصارمين قد يفقدون صرامتهم حين تبتسم. استغرقنا عدة ساعات حتى نقنع الجميع، ومن ثم عدة ساعات أخرى، حتى شفيت معظم المفاصل.. وكانت من إيجابيات تلك الحملة، أنها ضمت في استعارها أعضاء جددا لم ندعهم للانضمام، وسمعنا أن أبواباً كثيرة قد عولجت بواسطة مالكيها حين سمعوا أو شاهدوا ما حدث لبقية الأبواب، وأقسم العديدون أنهم شاهدوا زيتاً كثيفاً ينز من خرائب آل مسيكة التي كانت بلا أبواب، واعتبرتها مشاركة حقيقية من سكان أصليين في الحي. فرغنا أخيراً، لكن بقيت حوالي العشرة بيوت من بينها بيت النبوي حمل ساكنوها من الرجال العصي في وجوهنا، بينما سلّت نساؤها ألسنة كالجمر رمتنا بشرارها..

-3-

كـــان النهار قد انتصف تقريباً حين وصلت إلى مبنى المحافظة في وسط المدينة، لعلي أعثر على خيط جديد، أضمه إلى خيوطي المبعثرة. كـــان المـــبنى مهـــتاجاً في ذلك اليوم، وقد وقف العشرات من سائقي اللواري، والشاحنات الثقيلة، يتصايحون ويصفّرون، ويرفعون أصابعهم الخـــشنة بعلامة النصر، بينما انتشر حولهم عدد كبير من رجال الشرطة يحملـــون الوجـــوه الصارمة، والعصي المطاطية، وخامات الغاز المسيل للدموع..

- هل هو إضراب عام؟

ســـألت متفرجاً، يحمل في يده اليمنى صحيفة مطوية وفي اليسرى زجاجة من مشروب بزيانوس المحلي الرخيص.

- شبح البطالة.

همس المتفرج، وعيناه تلاحقان فتاة بزي أرجواني، كانت محشورة في وسط الأجساد والصراخ، ولا تستطيع الخروج.

- أية بطالة؟
- سحبوا منهم امتياز نقل الإغاثة إلى الأقاليم.. أعطوه لشخص كبير.. سيناريو عادي.. ومكرر..

همس المتفرج مرة أخرى، وعيناه لا تفارقان مأساة الفتاة.

تلملمـــت مـــن أمامه، وشققت طريقي إلى داخل المبنى بصعوبة شـــديدة، لم تكن سريرة بائعة الشاي المرابطة دائماً هناك، موجودة في

ذلــك اليوم، لتطالبني بتحديد يوم الزفاف وعدد جرامات خاتمها، ولا عثــرت علــى صديقي الحكومي مبروك في كل غرفة من غرف المبنى، اقتحمتها من دون استئذان.. كان في اجتماع طارئ لقيادات المحافظة.. اجــتماع لاحــتواء أزمة كما يسمونه، واقتنعت أخيراً بعدم جدوى وجودي في مكان قد ينفجر فجأة، وقد يتحول إلى ساحة من ساحات حــرب لا يعنــيني خوضها بأي حال من الأحوال، خرجت مسرعاً، لأجــد الفتاة ذات الزي الأرجواني ما زالت محشورة في مكانها، وبعض لــصوص الجسد يحاولون سرقة لمسة، أو بذاءة من تحت قميصها الذي كــادت أن تذيبه العيون.. سأحتوي أزمتها.. قلت في نفسي وأخذت أصرخ:

زوجتي.. أم عادل.. زوجتي..

لم أعرف لماذا أم عادل بالذات ما ورد إلى ذهني في تلك اللحظة، لكــن أزمــة الفتاة انحلت تماماً، تفكك من حولها الصراخ والتشابك، وانــدفعت خارجة، ليس في اتجاهي، ولكن في اتجاه متأنق وسيم، كان يقف مرتبكاً ومتصبباً بالعرق وهو يشاهد أزمتها بلا حل. فجأة جاءتني مكالمــة، مكالمة كاملة بلا ضياع ولا "أحتاج إليك بلا رصيد". كانت مــن أيمن الحضاري، لأنني شممت عطر الماكسي يفوح فواراً من هاتفي قبل أن ألمسه.

- هل أنت في السوق يا جرجار؟
- نعم.. تقريباً.
- إذن تعال إلى كريزي كافيه، أريد أن أريك شيئاً.

كــان كريزي كافيه مقهى صغيراً في وسط السوق الكبير، أنشأه عــبد الله جنّي الذي كان مدرساً سابقاً للفلسفة، وعضواً بحزب البعث العربــي الاشتراكي المحظور في البلاد، بعد خروجه من سجن مكث

فيه قرابة الخمسة أعوام. زوده بعدة كومبيوترات، وخطوط للإنترنت، وشـــاي وقهـــوة ونسكافيه، وأتاح للعامة أن يسبحوا في ذلك البحر الافتراضـــي العـــريض بأجور زهيدة، وفي غرفة زجاجية ضيقة داخل المقهـــى كـــان دائماً ما تجده مشغولاً، يدخن سجائر البحاري المحلي، ويعلم المبتدئين الذين غالباً ما كانوا صبية يافعين، كيف يسبحون لأول مرة، وكيف يخرجون من تلك السباحة. لم أكن من رواد ذلك المقهى أبـــداً، ولا من جيل يستطيع جنّي أو غيره إدخاله إلى ذلك البحر، لكن أيمـــن الحـــضاري كان زائراً يومياً، وحلقة للوصل بيننا وبين بحر جنّي المفتوح.

عثـــرت علـــيه جالساً على مقعد مكسور في ركن قصي، وعيناه معلقتان بالشاشة عند موقع جوجل.

- أنظر يا جرجار.. لديك ثلاث كاتيات شهيرات، واحدة منهن هي صاحبتك بالتأكيد.

ثم ابتدأ يقرأ بصوت خافت.. ليس بلغة الكومبيوتر، ولكن باللغة العربية بعد أن ترجم النصوص، ومستعيناً بالإنترنت أيضاً..

- كاتـــيا لويس كادويلي الشهيرة بالبطة لأنها لم تأكل في حياتها لحمـــاً غير لحم البط. تنحدر من أحد الأقاليم في شمال فرنسا، غـــنت لأول مـــرة وهي طفلة صغيرة، ووصلت إلى قمة المجد حـــين غنت لإفريقيا واصفة محنة السود في مواجهة العنصرية، هي الآن ترعى عدداً من الأيتام، وتحمل لقب سفيرة للسلام، تطوف به في كل أرجاء الأرض.
- كاتـــيا هولم كادويلي.. شاعرة ومترجمة شهيرة، هي يهودية الأم.. عاشـــت طفولتها وجزءاً من شبابها المبكر في إسرائيل، وعـــادت إلى فرنسا منذ ست سنوات لتنشر عدداً من دواوين

الشعر، وتناضل ضد أعمال القمع التي تمارسها إسرائيل في حق العرب.. وفي هذا الشأن زارت عدة بلاد عربية، وعاشت في أحياء فقيرة لتكتب المعاناة شعراً.

- كاتيا جيرار كادويلي.. الممرضة الحسناء التي اكتسبت شهرتها حين عملت في حملة إغاثة لدى زيمبابوي، واكتشفت بالصدفة غشاً رهيباً في أدوية الملاريا، التي تقوم بتصنيعها شركات أجنبية معروفة، لتنقذ ملايين المرضى هناك.. ويمنحها مجلس الحكماء الإفريقي لقب الملاك الذي لم يمنح لأحد من قبل.

انتهى أيمن الحضاري من قراءة السير المختصرة للفرنسيات، ليعرج على صفحة أخرى في البحر العريض، ويريني صوراً لأولئك الكاتيات، التقطت في مناسبات عدة كحفلات الكوكتيل، أو أعياد ميلاد النجوم، أو حتى في مولات التسوق، وكن جميعاً لدهشتي، رشيقات وأنيقات، فيهن جمال أسطوري، وأكاد ألمس رقتهن تتقافز من الشاشة لتضوع العطر في مقهى جنّي كله.. أخذ قلبي يدق بسرعة، وقرقرت الغازات في البطن، والحضاري يسألني:

- أي واحدة منهن صاحبتنا في رأيك؟

قلت من دون وعي..

- الممرضة.
- لماذا الممرضة بالذات، وكلهن ممكنات؟.
- لا أدري.. في عيني تلك الممرضة ما جعلني أحس بذلك.
- أوكي.. فلتكن الممرضة إذن.. لكن سأطبع لك الصور جميعاً.. حتى تتأمل بقية العيون على مهل... وتخرج بانطباعك النهائي.

ضـــغط على زر في لوحة المفاتيح، لتخرج إلى الواقع ثلاث صور فاتـــنة أخذت تتهادى على مهل حتى استلمتها بيدي. كانت لحظات حالمـــة، وفرصـــة لا تعوض لإشعال الخيال حين أعود إلى بيتي، وأرص تلك الصور على مائدة الغداء، لقمة من المغنية عاشقة لحم البط.. لقمة من الشاعرة اليهودية، ولقمة من الممرضة الحسناء، ثم أشبع. لن أتناول الفـــول هذا اليوم، ولن أخبر أحداً بالأمر، والحضاري أيضاً أوصيته ألا يخـــبر أحداً، خاصة الزعيم النبوي الذي قد يستولي على الكنـــز عنوة، يـــضمه إلى أجـــندة اجتماع صباح الغد، وربما يختارون المرأة الخطأ، ويبـــنون علـــيها مستقبل الحي. لو كانت البطة هي صاحبتنا، سيهاجر ميخا ميخائيل إلى فرنسا بكل تأكيد، هو الوحيد الذي يربـــي بطاً في الحـــي ويعرف كل مربيه في المدينة، لو كانت اليهودية التي تناضل ضد دولتها، سأحشد لها عدداً لا بأس به من الرجرجة الذين يتبنون النضال ضد سطوع القمر عند الضرورة، حتى تناضل بهم، ولو كانت الممرضة الملاك، فالأمر سهل للغاية: عندنا أدوية كل الأمراض مغشوشة، ابتداء مـــن دواء الملاريـــا وانتهاء بدواء علاج قشرة الرأس، ومجلس الشعب القومـــي، يملـــك ألقاباً بلا حصر ينتجها بشكل يومي، سيمنحها لها كلّها.. وقبل أن أخرج، همست في أذن الحضاري..

- هل هن متزوجات؟
- لم يذكـــر شيء عن زواجهن و لم تظهر لهن صور عائلية.. لقد بحثت كثيراً و لم أجد شيئاً. لكني لم أيأس وسأواصل البحث.

ثم بعـــد أن تذكـــرت قـــراءة حليمة المرضعة لكفي حين مددتها مرتعشاً مساء أمس، وذكرها لصاحبة العينين الواسعتين التي تراقب من بعيد..

- أيهن أوسع عينين في رأيك؟

دقـــق الحـــضاري في صور الكاتيات لدقيقتين، قبل أن يعود إلى بوجهه..

– كلهن واسعات العيون لا فرق.

تركته لسياحته التي لا تنتهي إلا في آخر النهار، وخرجت. كانت الكومبيوترات كلّها مشغولة، فتيان يسبحون، فتيات يسبحن، وأحدهم يضع سماعة على أذنيه، ويتحدث إلى طرف افتراضي، في هيام.

لم أرد أن أتحول إلى مقهى روماني الذي يحتضر الآن، بعد أن بقي صـــامداً لمدة قرن منذ أن أنشأه المهاجر الإغريقي روماني قرياقوس، أو غـــيره من محلات السوق، كنت متعجلاً لركوب أول حافلة إلى حي غائب لأتناول غداء المتعة الذي أحمله في جيبـــي، لكنني وجدت ميخا ميخائيل، وصديقه الجديد شاكر تعيس، يقفان أمامي فجأة، ويرجوانني أن أجلـــس معهما قليلاً في ذلك المقهى.. بقيت عشرة أيام فقط على إغلاقـــه يـــا علـــي.. كان ميخا يردد، وتلك الدموع الوليدة في عينيه توشك أن تنسرب.. مصرف يا علي تصور.. من يملك مالاً في الأصل ليضعه في مصرف؟، يردد والدموع لم تكن وليدة الآن لكنها ناضجة.. أملي الوحيد في صاحبتك كاتيا.. أليس كذلك؟

لم أســـتطع طمأنته، لأنني لم أكن واثقاً من شيء.. وحتى لو كنت واثقـــاً من أن صاحبتنا هي كاتيا البطة، فكيف أعلم أنها ستهاجر به؟. مـــشروع عازف للأورج في الستين، كيف أطمئن ذلك الرجل؟. كنا نـــتحدث عن لا شيء تقريباً، ميخا بلا توازن يبقيه مستقراً في حديث ما.. لحظة في كنيسة العذراء يطلي جدرانها بالأبيض، لحظة عند الأب مكـــارس يتأكد من كفاءة تنفسه ويطعمه بيديه، ولحظة عندي يسألني بـــلا كلل.. سأهاجر أليس كذلك؟، وشاكر تعيس ساهماً بعقله بعيداً، لدرجـــة أنه لم يحس بالعجوز جوليا روماني، آخر وريثة للمقهى، حين

جـــاءت إلى طاولتـــنا، وحين بكت بحرقة، وحين أغمي عليها، وحين ســـقيناها قليلاً من ماء السكر، وحين عادت مرة أخرى خلف طاولتها المرتفعة، لتدير مقهاها المحتضر. كان ثمة خليجي بالغترة والعقال يجلس إلى طاولـــة قريبة، وهويمازح فتاة سمراء مكشوفة الرأس، وترتدي ثوباً قـــصيراً. ثمـــة صينيون وكوريون من عمال النفط، الذين غزوا البلاد مؤخراً إثر اكتشاف النفط، يرطنون بلغتهم، ويتناولون حساء يتصاعد منه البخار.. رنات الهواتف المحمولة بمختلف التناقضات، بعضها مقاطع مـــن أغنيات، بعضها صياح ديوك، وبعضها ضحك وآهات، التلفزيون المعلـــق على الحائط، مفتوح على قناة الحقيقة ومريض بالسرطان يحكي رحلـــة شفاء مشكوك في أمرها، وعبر زجاج المقهى كنت أستطيع أن أشاهد التمثال المتهدم لأحد الزعماء التاريخيين. سألت ميخا..

- ما بال صاحبك شاكر تعيس؟.. هل هو مريض؟
- لا أدري.. لعله سقط في الحب.

ومـــن دون وعـــي مددت يدي إلى جيبـــي، تحسست خامات هيامـــي الخاص، وخفت أن يكون تعيس قد تخيل كاتيا الفرنسية أيضاً، وابتدأ يخطط لعشقها.

-4-

لم أفتح باب بيتي لأستمتع بعدم صريره، الذي عددته إنجازاً رائعاً وعممته على الحي كله.

لم أفرد صور غدائي الشهية على الطاولة، وأبدأ في تناول لقم الحسن الفرنسي من كاتيا البطة حتى كاتيا الممرضة. وجاءتني تلك الرسالة على هاتفي الجوال، كانت من أحد عيال النبوي، ولعله الكبير الذي فتح لي باب البيت، وهو يحتلم هذا الصباح.

- انتقل إلى رحمة الله فجأة، والدنا حكيم عبد القوي النبوي عن ثمانية وستين عاماً.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

وقبل أن استوعب الخبر تماماً، انهمرت على هاتفي رنات الرسائل لتؤكده.. من حليمة المرضعة قارئة المصائر، من عركي صاحب البقالة، من عمر الحلاق، وفرفور المغني، وحتى من المشرد كنكل ساكن الشوارع، الذي لا أدري من أين حصل على هاتف ورصيد.

على باب بيته الذي ما زال يحمل صرير المفاصل، لم يشف منه، كان ثمة تزاحم ثقيل: رجال يمدون أيديهم إلى الأمام لقراءة الفاتحة، ويسحبونها حتى قبل أن تبدأ السورة، نساء ينحن كعادة النساء، حتى لو مات جرذ. أطفال أتوا عشماً في ثريد أو قطعة لحم أو ورك من أوراك الدجاج، قطط وكلاب تتشمم الجو، وتفر. وعلى طول الشارع ثمة من يسأل، ومن يجيب. قلت لولده الكبير، الذي ما زالت في ثوبه بقايا من احتلام الصباح: أحسن الله عزاءكم، قلت لأخيه الأصغر: أحسن الله

عــزاءكم، وكدت أقول لبناته، لولا أنني تذكرت أن النبوي كان بلا بــنات.. فقــد ماتت امرأته منذ عشر سنوات، وفي بطنها بنت لم تر الحــياة. وفي موقف فريد من نوعه، وجدت الأمني موسى خاطر، يشد على يدي بقوة، وهو يردد: أحسن الله عزاءكم، وكانت المرة الثالثة لي منذ عرفت موسى، أن أمسك يد التقارير تلك. اقتربت من الولد الكبير بعــد أن خف التزاحم حوله، واتجه الناس إلى حصير من السعف فرش على مقربة من البيت، ليجلسوا عليه، سألت:

- ماذا حدث يا مبدع؟

كان اسمه مبدع، وكان الوحيد في البلاد كلّها الذي يسمى بذلك الاســم الذي جاء به النبوي من بلاد الشام حين زارها في شبابه ضمن وفد من مدرسي التاريخ..

- لا شيء.. مات أبــي وانتهى الأمر..

قالهــا بــلا حزن ولا دموع ولا تغيير في صياغة الوجه، ولا أي رغبة في استبدال ثوبه المتسخ، ليظل في العزاء ولداً كبيراً، وكأنه يقول.. سقطت ذبابة على كوب شاي وغرقت.

لم أشــبع مــن تلك الركاكة غير المألوفة في مثل هذه الظروف، خاصــة في حــي ممتلئ بالثوابت مثل غائب يعامل فيه كبار السن بلغة أكثر احتراماً، واتجهت إلى الولد الصغير..

- ماذا حدث يا سوكارنو؟

كان اسمه سوكارنو، وهو الوحيد أيضاً في البلاد الذي يحمل اسم زعــيم آسيوي سابق، ربما تأثر به النبوي بشدة في شبابه البعيد. كان سوكارنو سخياً.. وزودني بالتفاصيل كاملة..

- كان أبــي يكتب الشعر حين مات. كان من عادته أن يغيب عــن الوعي حين يكتب الشعر، يشخر ويخرج الزبد من فمه،

لكن قلمه لا يكف عن الكتابة، وفي بعض الأحيان كان الشعر يخـرج ملحّـناً لأن قدميه كانتا تتحركان بإيقاع منتظم أثناء الكـتابة.. وحين يفرغ، يصحو من غيبوبته.. ليكتب تاريخ القصيدة فقط.

- وماذا حدث هذه المرة؟
- توقف القلم عن الكتابة، لكن أبـي لم يصح.
- إنا لله وإنا إليه راجعون.. لكن ماذا كتب في قصيدته الأخيرة؟
- أبـيات ترحيبية بالفرنسية كاتيا كادويلي التي ستزور حينا.. سماهـا كاتـيا المـلاك.. أشاد بفتنتها، وقوامها، والكعك، والحلوى التي ستصنعها لسكان غائب.

خفق قلبـي في تلك اللحظة بسرعة مخيفة، قصيدة ترحيبية تصف فتنـتها وقوامها، ويسميها الملاك الذي كان منحة رسمية لكاتيا الممرضة من مجلس الحكماء الأفارقة.. هل في الأمر مؤامرة ما؟، وهل غدر بـي أيمـن الحضاري بعد أن خرجت من عنده ورن برصيد ليحدث النبوي بأمر اكتشافه في الشبكة العنكبوتية؟.. لا أظن ذلك.. لأن سيرة الكعك والحلـوى لم تـرد أبداً في جوجل ولا أي باحث آخر أشركه أيمن في التقصي.. إنها مجرد مصادفة بلا شك.

- وأين تلك القصيدة؟

عدت أسأل سوكارنو الذي بدأ يتهيأ لتقبل العزاء من ثمانين رجلا هـبطوا مـن أحـد اللواري فجأة.. كنت أحس بالفضول لقراءتها، لاكتشاف نوايا رجل ميت لا أظنها كانت نوايا حسنة.

- مزّقها أخي مبدع.. فهو يكره الشعر.

لم تكـن لي رغبة في تسخير قلبـي لسب أحد، فلم أسب ذلك المـبدع غير المبدع، فقط هممت أن أسأل سوكارنو عن تلك الظروف

الطارئة التي كانت عندهم في الصباح، وجعلت والده يتوكأ على عكازيه حتى الباب ويطردني، لكنّ المعزين الثمانين هجموا على الولدين وهم يمدون أيديهم بسورة الفاتحة، وكان في وسطهم ملتح، بثوب قصير وصوت جبار، قدموه باسم الشيخ أسامة، وسمعته يصرخ:

- الغريق شهيد.. المحروق بالنار شهيد.. الساقط من حالق شهيد.. والميت أثناء كتابة الشعر، أيضاً شهيد ما لم يكتبه في معصية.

وكان موت كاتب الشعر شهيداً، ترفاً جديداً أسمع به لأول مرة.

تناوبنا غسيل النبوي أنا وشاكر تعيس، باعتبارنا من أحبابه المقربين، ولم نكن في الحقيقة كذلك لأن النبوي كان متضخماً بزعامة تشد احترام الناس، لكن بلا حب. ورافقنا في تلك المهمة الشاقة، القبطي ميخا ميخائيل. كانت فكرته أن يتعلم غسل موتى المسلمين، وتوابعه من الدعاء والبسملة، ليضيفها إلى سيرته الذاتية، حتى إذا ما فشلت الهجرة إلى فرنسا، تقدم إلى إدارة المصرف الإسلامي الذي سيقام على أنقاض مقهى روماني، فربما يعينونه غاسلاً لموتى الموظفين الذين سمع بأنهم سيكونون بالآلاف.

كانت جنازة النبوي مهيبة حين خرجت من بيته، جنازة بلا حزن ظاهر، لكنها جنازة زعيم، كان فيها ثلثا سكان حي غائب، وعدد كبير من سكان الأحياء المجاورة، وبعض أعضاء اللجان الشعبية المحلية للأحياء كلّها، الذين يتقصون أخبار الموت أكثر من تقصيهم لأخبار الغلاء، وانعدام السلع، وينحشرون حتى في جنازة غراب. سرنا بها في المجاري والحفر غير عابئين بلفح الذباب، والماء الآسن المتراكم على كل باب، وتلصص النساء من خلف كوى البيوت. كان النعش ثقيلاً بلا شك، نعش رجل يزن خمسة رجال

بالغين، وثمانية صبيان مراهقين، لكننا أحياناً كنا نحس به خفيفاً كأنه سيطير من بين أيدينا، وأقسم البعض، أنهم عائلة الجن آل مسيكة، يشاركون في التشييع بحمل النعش من حين لآخر. اقترب مني عركي صاحب البقالة ليهمس في أذني بأنه لن يطالب عيال النبوي بسداد ديونه المتراكمة في الدفتر، لكنه سيراسل جمعية المروءة الخيرية التي مقرها جدة في السعودية، ولها مكاتب عدة في البلاد، ليحدثهم عن ماسح سيارات فقير اسمه النبوي، دهسته سيارة مشتعلة أثناء مسحها، وترك خلفه زوجة شابة، وعيالاً رضَّعاً. كان يريد شهادتي حين يطلبون شاهدا. اقترب الأمني موسى خاطر من وجهي، لينبهني بأن أحد جيوب ثوبي به انتفاخ غير معهود، وكان لسوء حظي أن صور الكاتيات قد نفخت الجيب قليلاً. مشى معي شاكر تعيس عدة خطوات وهوساهم بعقله بعيداً، ثم تأخر عني لينضم إليه القبطي ميخا، وهو يشاركنا التشييع، مضيفاً فقرة أخرى إلى سيرته الذاتية.. الملتحي أسامة أوقف النعش عدة مرات، ليتحدث عن فناء الدنيا وعذاب القبر، ونعيم الآخرة للمتقين. قال أيمن الحضاري إنه سينشر النعي في موقع الإخوة أونلاين الذي يدخله الناس من شتى بقاع الأرض، وسيحضر كل تعقيبات المعزين مطبوعة، وتمتم فرفور المغني الذي كان يابساً بلا هيئة فنية:

- هل صحيح إن النبوي كان مدمناً لعقار الفياغرا؟

ضربته على ظهره، فابتعد مزمجراً، واعتبرها إهانة لا تغتفر لمغن كبير مثله. لكنه ما لبث أن عاد مبتسماً ليخبرني بأنه يضع اللمسات الأخيرة لأغنية اسمها كاتيا الرائعة، كتبها ولحنها بنفسه. ولم أفزع هذه المرة، كنت على يقين من أنه لو كانت ثمة أغنية من تأليف فرفور وتلحينه، فلن ترى النور قبل أقل من عشر سنوات. من بعيد، كنت

أرى عمـــر الحـــلاق يتحدث إلى شاب طويل شعر الرأس، ولعله كان يفاوضه لقصه في زمن ترنحت فيه مهنة الحلاقين بسبب رعونة الشباب، ومـــن بعـــيد أكثر، بدت صفوف أشجار المسكيت المالحة التي تحيط المقابر.

دفنا النبوي في قبر أدخلناه إليه بصعوبة، لكننا لم ننته بعد، كانت أيام العزاء مهلكة للغاية، أيام أنستني غداء الصور الفرنسي الفاخر الذي خبأته في بيتي حين عثرت على فرصة للفرار إلى البيت، ولا أدري متى أتذوقه، أنستني في الواقع تقصي أخبار جديدة من مبنى المحافظة، وكان أكثـــر ما أخشاه أن تأتي الفرنسية في تلك الأيام بالذات، فتجدني يابساً من دون عاطفة، ومتسخاً من دون هندام ألتقيها به. ناديت على مبدع النـــبوي عدة مرات ونبهته إلى ثوبه الذي ألمح في وسطه كل يوم بقعة جديـــدة، فلم يكترث، وشتمني في إحدى تلك المرات، وحرضت أيمن الحـــضاري على الفرار من بيت العزاء مراراً، ومتابعة البحث والتقصي عن أولئك الكاتيات وخصوصاً إن كن متزوجات أم لا.. رنت عديلة، تلـــك التي غابت تماماً عن ذهني، عدة مرات بلا رصيد، ورددت عليها في إحـــدى المـــرات مستخدماً رصيدي، لأكتشف أنها أختي الوحيدة عديلـــة جـــرجار، أم الولد الذي يرسل لي مصاريف شبه شهرية من منطقة الخليج، والتي تعيش في مدينة أخرى منذ زواجها وتتواصل معي مـــن حـــين لآخر برنات هاتفية بلا رصيد، كانت تود أن تسأل عن حـــالي، وتخـــبرني بأنها عثرت لي على أرملة في الخامسة والخمسين من العمـــر، سيسرها حتماً أن تقترن بـــي، وكانت بذاءة كبيرة أن اكتب علـــى رقمهـــا في الهاتف "أختي عديلة"، حتى لا تضيع من ذهني مرة أخـــرى، وأن أعدها بالتفكير في أمر أرملتها المسنة، وكان وعداً كاذباً بلا شك.

أخـــيراً أتيح لي أن انفرد بغدائي الذي مضت على اقتنائي له ثلاثة أيـــام كاملـــة، هي أيام البكاء الكاذب على الزعيم النبوي، الذي ترك الحـــي بـــلا مايكرفون متمرس لإذاعة الأخبار.. وترك ولدين أحدهما مبدع مزيف، والآخر يحمل اسماً غير مهضوم، لا في حي غائب ولا في البلاد كلّها. تحدث الناس كثيراً عن وجود زوجة سرية تنحدر من إقليم دارفور في غرب البلاد، جاءت تطالب بميراثها، وتحدثوا عن بيوت كان يملكهـــا في أحـــياء راقية، ولا يعرف عنها أحد شيئاً. قالوا كان يخطط لـــشراء حافلة لنقل الركاب، وقارب لصيد السمك، وحصة من أسهم شـــركة عـــربكو المتخصصة في إنتاج الملح، لكنها كلّها أخبار لم تكن ترقـــى إلى التـــصديق، فقد كان النبوي أحد الفقراء الكبار في حي بلا ثـــروة.. فتحت باب بيتي واستمتعت بعدم صريره كما أستمتع بأغنية، اســـتحممت حماماً منعشاً بصابون زست الفاخر الذي أستخدمه لأول مـــرة، فـــركت أسناني بفرشاة الأسنان الحمراء الجديدة، فردت صور الكاتـــيات على طاولة حرصت على تلميعها أولاً بالماء والكولونيا، ولم أنـــس أن أرهف أذني متسمعاً، حتى إذا ما ضج صوت دراجة موسى أخفـــيت الغداء الكنـــز. وكان هاتفي مغلقاً في وجه الرنين. لقمة من الـــبطة المغنية، لقمة من الشاعرة اليهودية وعشرات اللقم من الممرضة المـــلاك.. هـــذه هـــي بلا شك، لأن اللعاب سال أكثر عند صورها، وغازات البطن شاركت أكثر حين تذوقت أول لقمة من طبقها.

الطرقات هذه المرة على الباب أعرفها جيداً، إنها طرقات الجميلة جـــدّاً ســـلافة، وكنت على يقين بأنها جاءت لتعزيني في وفاة النبوي، الـــذي لا أعرف لماذا يعزيني الناس فيه. فردت ملاءة نظيفة غطيت بها الـــصور، ونهـــضت كي أفتح. كانت تقف بالباب مزركشة بمكياج عنيف، على أصابعها صبغة أرجوانية، وعلى فمها ابتسامة بلا تفسير، لم

أدعهـــا للدخـــول لأن العزاب الشرفاء في حي غائب لا يدعون امرأة للدخول أبداً، وحتى لو دعوها فلن تدخل، تعتبرني في كثير من الأحيان مجنوناً يستحق أن يلسع بكهرباء المصحات، وفي القليل منها جنتلمان، تستـــشيره في معـــضلاتها. لم تمـــد يدها بالسلام، ولم تقل "أحسن الله عزاءك" لكنها همست:

- قل لي يا علي.. كم عمر شاكر تعيس في رأيك؟
- لماذا تسألين؟
- لا أدري.. سؤال خطر لي.

في الحقـــيقة لم أكن القابلة التي أخرجت شاكر تعيس إلى الدنيا، ولا كاتب الصحة الذي وثق شهادة ميلاده لأعرف عمره بالتحديد.. وكنت مرتبكاً ومتعجلاً لمعاودة التهام الصور.. قلت بعد أن تصفحت ذاكـــرتي الحافظـــة كـــل مـــصائب الحي التي عاصرتها، ربما أكثر من الـــسجلات الرسمية، وتذكرت صيحات أمه التي ولدته في يوم انقلاب عـــسكري، وحظـــر تجول، شل البلاد كلّها، وكان العثور على قابلة لإخراجه إلى الدنيا، أمراً شديد الصعوبة:

- تسعة وثلاثون عاماً وشهران، وستة أيام.
- هل أنت متأكد يا جرجار؟
- نعم.

لم تقل شكراً، ولم أطالبها بشكري، ولم تضف حرفاً آخر، لكن ابتـــسامتها مـــلأت الوجه كله، وانطلقت فارة من أمامي.. ماذا يفيد ســـلافة أن تعـــرف عمر الرجل الذي لم يذق ماء زمزم حين كان في متـــناول يد الجميع؟ الرجل الذي تزوج ثلاث مرات في أحياء أخرى بعـــيدة عن حي غائب من دون أن يدعو أحداً إلى زواجه، ولم تمكث معه زوجة واحدة من أولئك الثلاث أكثر من شهر، لأسباب لا يعرفها

أحـــد؟ كان يكسب قليلاً من أعمال السمسرة في الأراضي ولم يبد لي في أي يـــوم مـــن الأيام مخنثاً تفر من فراشه النساء، غداً سأجد تفسيراً لكل ذلك.. قلت في نفسي، أغلقت الباب، وعدت إلى وجبتي الفرنسية أكمل التهامها.

-5-

كان الحكومي مبروك جالساً على مكتبه الواسع في مبنى المحافظة، حـــين دخلت عليه بلا استئذان، بجانبه سكرتيرته الإثيوبية التي كانت عاملـــة في محل لتصفيف الشعر في وسط السوق حين التقطها، أدخلها معهـــداً لمحـــورطانة الأحباش من اللسان، ودورة لتعلم الكومبيوتر على حـــسابه، ووظفهـــا كسكرتيرة، لا أدري ليستريح في تفاصيل وجهها المليـــيح حـــين يتعب، أم ليمضي معها إلى أكثر من ذلك؟ وأذكر حين رأيتها أول مرة، وهيجت في شكل عرق غزير، وغمزات أصابت عيني، وقرقرة شديدة لغازات البطن، ساعتها نهرني مبروك، قال لي في غلظة: لا تغازل ملكة يا علي.. لا تغازلها أرجوك يا جرجار.. اعتبرها حائطاً بلا طلاء، أو تلك الثلاجة التي بها ماء بارد.

كان صعبا جدّاً أن أتخيل ملكة حائطاً بلا طلاء، أو ثلاجة باردة، لكـــني استـــسلمت لرجائه، ومنذ ذلك اليوم كنت أراها كلما زرته، لكـــني لا أرى سوى صلادة الأسمنت، وبرودة الثلج التي لم تكن قط حقيقة..

صـــرف السكرتيرة بإشارة من يده من دون أن يوقع ورقة واحدة والتفت إلي:

- سمعنا بوفاة الأستاذ حكيم النبوي.
- نعم.. توفي منذ أربعة أيام فجأة.
- إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت أعلى رأسه صور عديدة تمثل رئيس البلاد حين افتتح محطة لتحلية مياه الشرب في المدينة، و لم يخرج من جوفها ماء حلو بتاتا، حين تفقد أنابيب النفط ساعة إعلانها أنابيب نفط عاملة، وحين خرجت من فمـــه ابتسامة عريضة، وهو يحاور واحداً نجا من عبارة غرقت في البحر الأحمر.

- ومـــن تظـــنه مناسباً ليخلفه في تأصيل الإشاعات ونشرها في الحي؟

ابتسمت، لكن الحكومي لم يبتسم أو يغير تعابير وجهه، وفي لحظة اســتغراب شــديد تملكتني، أخبرني بأن تأصيل الإشاعات ونشرها في الأحــياء الفقيرة، مهنة رسمية لدى الدولة، وأن النبوي كان يتلقى راتباً شــهريا علــى ذلك، النبوي ينشرها، وموسى يكتبها تقارير.. وبقية الأجهــزة تتــصفح التقارير لإجراء اللازم، هل فهمت يا جرجار؟ أنا أخبرك بذلك لأنك صديق.. هل تفهم؟

لم أفهــم جــيداً، لكنني خفت، بدأت أتهيأ لرفض وظيفة النبوي الــشاغرة التي قد تعرض علي في تلك اللحظة، لكن مبروك تجاوز تلك النقطة إلى نقاط أخرى كانت هامة بالنسبة إلي:

- أظــنك جئت لتسأل عن مستجدات في خبر الفرنسية كاتيا.. أليس كذلك؟
- بالضبط هذا ما أريده.. هل من مستجدات؟
- نعم.. إنها قريبة من هنا.. وستأتي في غضون يومين أو ثلاثة.. هــي الآن في زيمــبابوي للقاء أحد الحكماء الأفارقة بناء على دعوة منه.
- هل هي ممرضة اكتشفت غشاً في أدوية الملاريا؟

صرخت وقلبــي يخفق بشدة.

- كيف عرفت؟

سـألني الحكومـي، وعيـناه تكادان أن تفارقا محجريهما من الدهشة.

- كيف عرفت؟
- من التكنولوجيا..

قلـتها وتمنـيت أن يفهم، وقد فهم.. قال.. سأخبرك حين تصل حتى تأتي لاصطحابها إلى الحي بأي طريقة تشاء حتى لو صحبتها ماشياً على قدميك.. لا دخل للحكومة في زيارتها، ولسنا مسؤولين عن شيء أكثر من التقاطها من المطار وتسليمها لكم. استأجر لها غرفة في بيت به نساء مسنات، وساعدها إن احتاجت إلى مساعدتك في أي لحظة.. هل هذا واضح؟

ثم سـلمني رزمـة من المال ملفوفة بورق شفاف أخرجها من جيب في قميصه متعدد الجيوب، ولا أدري أكانت من ماله الخاص، أم من بند حكومي منسي يستطيع مغازلته متى شاء... خبأت المال في جيب تحتي بثوبـي النظيف الذي أستخدمه في المناسبات الجليلة كالأفراح والأتراح، وزيارات المحافظة، والمستشفيات، وكدت أبتسم حـين أوصاني بكاتيا.. وهو لا يدري بالطبع أنها موجودة في دمي وبـيتي، وأهـتم بها كما لا أهتم بشأن آخر، ولولا موت النبوي المفاجئ، وعزاؤه الذي استهلكنا ثلاثة أيام لكنت قد أنجبت منها أو لاداً حتى الآن.

تهيأت للانصراف حتى ألغي الكاتيتين الأخريين، البطة واليهودية، وأنفرد بالممرضة الملاك، حين استوقفني مبروك، وكانت في صوته رائحة أمر:

- تعال إلى المخزن لنلعب دور دومينو.. تعال.

كان المخزن الذي ذكره، غرفة ملحقة بمكتبه لم أدخلها من قبل، ولا كـــنت قد لاحظت وجودها أصلاً. فتحها بمفتاح ذهبـــي أخرجه مـــن جيبه، وتأخر حتى دخلت ثم أغلق الباب من خلفه. كانت أمامي غـــرفة لا تشبه اسمها، مرتبة بشدة، بها طاولة من الزجاج اللامع، وعدة كراسي جلدية مريحة، ولحاف من الإسفنج مفروش على الأرض بعناية، إضـــافة إلى خزانة من خشب الزان بابها نصف مفتوح. وكانت ثمة علـــبة أنيقة من القطيفة تحتوي على حبات الدومينو، موضوعة على الطاولة.

اجلس واهزمني.. اجلس يا عجوز.

قال ويداه توضبان قطع اللعب. لكنني لم أكن معه، فقد لمحت عبر الباب نصف المفتوح للخزانة الخشبية، ما بدا لي معرضاً نسائيا ممتلـــئا بالشبق حتى القاع. ثمة قمصان نوم حمراء وزرقاء وبنفسجية، حمالات صدر منتفخة كأنها تحتوي صدورا يانعة، وتفاصيل أخرى لم أحدد معالمها جيداً، لكنني تخيلتها بجدارة. انهزمت في الدومينو خمس مـــرات وخرجت، وقد صغر الوطن في عيني لدرجة أنني فكرت في كـــتابة رسالة فورية للرحالة حاكم عذابو، وإخباره باستقالتي من حزب "وطنك الكبير" الذي أسسه، وكنت أفخر بانتمائي إليه فيما مـــضى. أحسست بمثانتي توشك أن تنقبض، فقد نسيت تدريبها في الأيـــام الأخيرة وسط الأحداث، سعلت بشدة لأنني نسيت تدريب رئتي أيضاً، وانـــزلقت في طريق ضاج. في العام الماضي، التقط الناس عـــن طـــريق البلوتوث المثبت في الهواتف المحمولة، شريطاً عربيداً لـــضابط كبير في الجيش يرقص في أحضان مغنية رخيصة. في العام الماضـــي أيضاً، قبض سكان أحد الأحياء الفقيرة على رأسمالي بارز، كان يتردد بشراهة على بيت به أطفال قصر. وتأتي دردشات المجالس

يومياً بما يجعلني أنا علي جرجار، مجرد جرذ تافه في وسط الصعاليك الكبار. لم أرد أن أتخيل ملكة، عاملة تصفيف الشعر الإثيوبية، في واحد من تلك القمصان الملتهبة، وعلى صدرها حمالة منتفخة، لكن للأسف تخيلتها.. لم أرد أن أفكر في جرائر صديقي مبروك التي قد تكون جرت في مخزنه الأنيق، لكنني فكرت. كنت قد اقتربت من كنيسة العذراء، حيث ترقد ذكريات نارية للقبطي ميخا ميخائيل، لكني لم أجدها، عثرت على أرض خلاء مسورة بالخشب، وضاجة بأصوات آليات تحفر أو تزيح التراب بعيداً، وفي أحد أركانها لافتة ضخمة كتب عليها.. مشروع برج التوبة.. مكاتب وشقق سكنية، للحجز والاستعلام.. اتصل. لم أجد رابطاً بين الاستثمار والتوبة، وأحسست بخسارة القبطي حين ماتت ذكرياته كلّها ودفنت تحت الأرض. وخسارته الأكبر لأن كاتيا القادمة كأمل ضعيف، ليست عاشقة لحم البط. لن أترك ميخا القبطي بأي حال من الأحوال، لن أتركه ليموت أو يجن. قد أحاول تهجيره بطريقة أو بأخرى، وقد آخذه إلى أحد المساجد الكبيرة في يوم جمعة مزدحم ليغير عقيدته، ويكسب بعض التعاطف، ثم أحرض عركي صاحب البقالة الثعلب ليتخذه رسالة فريدة وعاجلة إلى إحدى جمعيات الخير في الخليج، تحكي عن مسلم جديد اسمه مختار، يريد أن يحج ويعتمر حتى تكتمل عقيدته. عبرت بالقرب من مقهى روماني العتيق، وكان بلا زجاج، ولا رواد، ولا لافتة تحكي تاريخ ميلاده. حوله عدد من الآليات الثقيلة أيضاً، وصاحبته الأخيرة جوليا راقدة أمامه، وبعض المتطوعين بمن فيهم ميخا ميخائيل، يسقونها الماء.. أغراني المال الذي في جيبي، بشراء قمصان وبناطيل جديدة تلائم تطور الدم في جسدي، فدخلت إلى متجر الإغريقي كوستا واشتريت. أغراني المال

مرة أخرى، فانتعلت حذاء جديداً من الجلد الأصلي اشتريته من محل باتا الذي كان يرتاده من يملكون خامات ارتياده. أخذت أحصي في ذهـني عـدد البيوت التي فيها نساء مسنات في حي غائب لأحشر كاتـيا الملاك، وسطهن، وعثرت من دون معاناة على بيت حليمة المرضـعة الذي به عدة غرف تطل على الشارع مباشرة، وتؤجرها المرضعة لطالبـي قراءة المصير، الذين قد يأتون من مدن أخرى، ولا يملكـون أقارب في الحي، وقررت أن استأجر غرفة هناك.. كانت فرصة لاقتناص كاتيا متى ما أردت، وفرصة للمرضعة أن تقرأ لأول مرة في حياتها كفّاً أوروبية.. وربما تتطور أدواتها بعد ذلك.

كانـت تـوجد بالسوق عدة أكشاك لبيع أشرطة الموسيقى بلا رقابـة. يأتي أصحابها بنسخ أصلية من تلك الأشرطة، يستنسخونها بلا كلـل، ويبـيعونها لمن أراد وبسعر النسخة الأصلية. في تلك الأكشاك يمكـنك أن تعثر حتى على بوي جورج، أو علي فرتكاري مستنسخاً، ومبعثـراً علـى مائدة خشبية غاية في القذارة. وقفت أمام أحد تلك الأكـشاك، وكـنت أعرف صاحبه، حيث أمر من حين لآخر لشراء شـريط مـن أشرطة مطرب قديم، أو الاستمتاع بضحكات ثريا التي كانت فتاة ضاحكة تساعد صاحب الكشك في نسخ الأشرطة وبيعها. لم تضحك ثريا حين لمحتني، كانت متجهمة، ترتدي ثوباً أسود، وتجلس سـاكنة بينما الدسوقي صاحب الكشك يعمل على آلات تسجيله في سرقة شريط جديد.

– سلام.

قلـتها وانتظـرت ضحكة ما، لكن الدسوقي رفع عينيه عن شريطه:

– ارفع الفاتحة لثريا يا جرجار، أختها ماتت منذ يومين.

مددت يدي لأقرأ سورة الفاتحة، وسحبتها قبل أن تبدأ السورة، وثريا فعلت كذلك، في حركة ميكانيكية اشتهرنا بها في العزاءات.. نقرأ الفاتحة ولا نقرأها حقيقة، نترحم على الميت، وفي الواقع لا نترحم عليه. طلبت من الدسوقي شريطاً للمغنية الفرنسية كاتيا كادويلي البطة، فأعطاني ثلاثة أشرطة من دون قرش واحد، وهو يقول:

- سوقها كاسد عندنا.. لا أحد يحب صوتها.. كما أنها تغني بالفرنسية التي لا يفهمها حتى الذين يدرّسونها للطلاب، لكن قل لي من أين تعرفها؟

لم أرد.. وانسحبت تاركاً ثريا الضاحكة لحزنها المؤقت، والدسوقي صاحب الكشك لدهشته التي حتماً ستظل عالقة به إلى أن يأتيه زبون جديد.

متى كانت آخر مرة ركبت فيها عربة للأجرة إلى حي غائب؟

بل متى كانت أول مرة؟

في الواقع لم تكن هناك لا مرة أولى ولا أخيرة. كانت سيارات الأجرة ترفاً لم أحلم به يوماً، وأنا الذي أعيش على تقاعدي البسيط، وما يبعثه لي ابن أختي عديلة من الخليج، حين يتذكر انه ابن أختي.. لكن بنقود مبروك التي خصصت لتبدأ بها الفرنسية حياتها في حي غائب، وبما أحمله من قمصان وبناطيل، وحذاء من ماركة باتا، فقد استسخفت الباصات والحافلات، وما تحمله من جرب وروائح، بصقت عليها كلّها، وأوقفت سيارة للأجرة جديدة ومكيفة، كانت من ماركة هيونداي الكورية التي غزت البلاد مؤخراً، وقضت على سطوة الحديد الياباني الذي سيطر على السوق أكثر من نصف قرن. ولأن ركوب سيارات الأجرة، انفراد بين شخصين: السائق والزبون، فقد كان لا بد

من ابتسام، وضحك وتعارف وثرثرة، وفي النهاية صداقة وثيقة قد تدوم طــويلاً وقد تنتهي بانتهاء المشوار.. وهذا ما حدث لي، فقد ابتسمت وضــحكت وثرثــرت في كل شيء، لكني هبطت من السيارة في حي غائــب، وذهــني خــال حتى من رائحة زهرة القرنفل التي كانت بيد السائق يستنشقها من حين لآخر.

-6-

أعطني أعطك.

الكـــتابة العريضة بالفحم عل باب حليمة المرضعة، قارئة المصائر. ويدي ثابتة تطرق الباب.

رأتني زهورات الإثيوبية فاندلعت شياطينها في وجهي.

- اذهب.. ستموت قبل أن ترى الفرنسية... اذهب.

كانـــت مـــسنة بالفعل، ربما على حافة الستين أو بعد ذلك، و لم تـــنس أبداً ليلة الزفاف تلك التي لم تر بعدها ليلة تخوضها كأنثى. كان وجههـــا عظمـــاً يابـــساً، شعرها مصبوغاً بحناء لم تعده أسود، لكنها شـــوهت هيـــبة بياضه.. ويداها اللتان لم ترحمهما الخدمة طيلة أربعين عامـــاً، ترتعشان. أشفقت عليها بشدة في تلك اللحظة، وأشفقت على نفسي أيضاً لأنني كنت أكثر منها انحناء، فقط أحاول أن أسير منتصباً، وأكثـــر يبـــساً في الجلد، لكن أعوّضه بري العاطفة. رمت بثقلها على الباب تغلقه، ورميت بثقلي لأبقيه مفتوحاً، وهزمتها.

بلهاء.. صحت..

أعرف.. ردت.

كانـــت المرضعة في لحظة استرخاء لذيذ كما بدا لي، لأنني سمعتها تغني في مرح واحدة من أغنيات المرحوم كرومة، تتغزل في بنات جيلها وتـــصفهن بالملكـــات والأميرات، وسمعتها تقول بصوت ناعم لا يشبه صوتها الوعر الذي أعرفه:

- لا تدخلـــي أحـــداً يا زهورات.. لا تحضري لي كفاً بائسة.. أرجوك.
- إنه جرجار يا مرضعة.

صاحت الخادمة.

- قـــولي له أن يجفف كفه من العرق، ويأكل بلا عسر هضم ثم يأتي.. أبعدي عني ذلك القرد.. هل سمعت؟..

في الماضـــي لقـــبوني بالثعلب، وزير النساء، والمجنون، وصاحب الضرس الكبير، لأنني ظللت أتوجع من أحد أضراسي خمسة عشر عاماً حتى سقط، لكنها كانت المرة الأولى التي يلقبني فيها أحد بلقب القرد. تجاوزت عن ذلك اللقب بسهولة، ووقفت أمام المرضعة بعد أن أزحت الإثيوبية من أمامي، لتفقد استرخاءها اللذيذ، وتستعيد صوتها الوعر:

- لا نستقبل أحداً في مثل هذه الساعة يا جرجار.
- لكنني لم آت لقراءة كفي.
- إذن ماذا تريد من امرأتين لا تنفعان حتى نائحتين في الموت؟

اعـــتدلت في جلـــستها، ضامة لحمها العجوز إلى بعضه، وتاركة خـــصلتين من شعرها المتهدم تنـــزلقان على جانبـــي وجهها. كانت عيـــناها ضـــيقتين، وفـــيهما كحل، وأظنها شمت المال الذي يرقد في جيبـــــي، أو لاحظـــت حـــركة يـــدي التي تربت على ذلك الجيب باستمرار، لأنها قالت بسرعة:

- قتلت قتيلاً، أم سرقت مسروقاً؟
- لا هذا ولا ذاك.

قلـــت.. وباختصار شديد أخبرتها بنيتي في استئجار غرفة في بيتها لكاتـــيا الفرنسية، واحدة من تلك الغرف جيدة التهوية التي تطل على الطـــريق، وبقـــربها حمـــام، وبشرط أن يكون أثاثها معقولاً، وملاءاتها

ووسائدها جديدة لم تستعمل، ولم أنس أن أخبرها بأن ذلك أمر من الحكومة.

وقفت على قدميها بصعوبة، وانتعلت حذاء واطئاً أتاح لجسدها الممتلئ أن يتراشق أمامي، أحسست بها راضية لكن ليست في كامل الرضا، أخذتني إلى غرفها الست التي كانت متراصة كقطار، وبين كل اثنتين منها حمام مطابق لحمامات حي غائب، لا ماء منتظم ولا جلسة مريحة تعين على الإخراج. لم يكن في تلك الغرف ساكن واحد، وقالت المرضعة، إن شح المطر وكساد الزراعة في قرى ومدن الجزيرة الخضراء، قد أثر على حركة زبائنها الذين يأتون من بعيد. قالت: افتقدت أجولة الدخن والعدس، وافتقدت العمدة مرزوق صاحب الحلال، الذي ما غاب من قبل. لم تكن ثمة غرفة مناسبة حتى لإسكان راهبة بوذية، لكن المرضعة اختارت واحدة بها سرير متسع، وخزانة صدئة، وطاولة تتسع لشخصين، وأكدت بأنها ستجعلها مناسبة في الحال، ثم صرخت: يا زهورات.. يا بنت إثيوب.. يا لئيمة..

استأجرت الغرفة على الفور، دفعت إيجار شهر كامل، وأنا لا أعلم كم يوماً ستقيم الفرنسية فيها. لكن لا مشكلة، قد أستغلها في أغراض أخرى إذا رحلت كاتيا مبكراً، وقد تكون الغرفة التي أقضي فيها جزءاً من شهر العسل، إذا سارت الأمور كما رسمها خيالي. كانت الإثيوبية زهورات تترنح كطير ذبيح، وفي أكثر من مرة نبهت المرضعة إلى خطورة إسكانها للأجانب في بيتها. تحدثت عن تفجيرات كبرى حدثت في بلاد العرب، وشاهدتها في أخبار الفضائيات، وتحدثت عن خلايا تنظيم القاعدة النائمة في كل مكان، والتي يقولون إنها تستيقظ على رائحة الأجانب. لم تكترث المرضعة لثقافة خادمتها، نهرتها بصوتها الوعر:

- كفى.. كفى يا زهورات قبل أن أعض ثديك مرة أخرى.

فهرولت الخادمة من أمامنا، وهي تمسك بثدييها.

دعتني حليمة إلى كوب شاي، أعدته بنفسها في بطء وتلذذ. سألتني عن موعد وصول الضيفة.. فقلت إنني لا أدري بالتحديد. عن مدة بقائها.. قلت لا أدري أيضاً. كانت المرة الثانية لي في دخول ذلك البيت، والمرة الأولى التي أجلس فيها تلك الجلسة الودودة برفقة امرأة طالما خفت من وجهها وصراخها ساعة قراءة المصير. وعلى ضوء النهار الذي ما زال ساطعاً، استطعت أن أتبين تفاصيلها، وكانت تفاصيل امرأة لم يبق من عمرها الكثير.

الطرق على باب المرضعة كان ملحّاً، والإثيوبية تظهر من جديد بعد أن فتحت الباب:

- شاكر تعيس والقبطي ميخا يا مرضعة.
- ماذا يريدان؟.
- ميخا يريدك أن تقرأي كفه بعد أن أغلقوا مقهى روماني اليوم قبل أن تكتمل العشرة أيام التي حددوها..

انزعجت المرضعة بشدة، رأيتها تفقد الود فجأة، وتتحول إلى جمر:

- لا أقرأ كفوف النصارى. أنت تعرفين يا زهورات.. لا أقرأها أبداً.

ثم هرولت بثقلها نحو الباب.

أول شيء فعلته حين عدت إلى بيتي، أن بحثت عن جهاز تسجيلي القديم، الذي لم أستخدمه منذ فترة طويلة. نفضت غباره المتراكم، ووضعت عليه واحداً من أشرطة كاتيا البطة، وراعني ما سمعت. كانت الموسيقى أشبه برمي الحصى على باب من حديد، والصوت الذي

يـــرافقها، خشناً، وجارحاً، ولا يشبه ذلك الوجه الذي يسكن في بيتي ضمن مجموعة الكاتيات. أغلقت الجهاز وأسرعت إلى صوري، التقطت صورة البطة، وحشرتها في إحدى الخزائن، تأملت صورة اليهودية قليلاً قـــبل أن أحشرها برفقة صاحبتها أيضاً، وحين انفردت بكاتيا الملاك، خلـــت أنها تبتسم لي، لا لأولئك الصعاليك الذين كانوا يحيطون بها في حفل يبدو أنها كانت نجمته.

فجأة تذكرت تلك القصيدة التي كان يكتبها النبوي حين مات، ولعنت في سري ذلك المبدع المزيف الذي مزّقها بحجة كراهية الشعر. لـــو كانـــت بحوزتي الآن، ربما استطعت استخدامها طعماً حين تأتي المرضـــة، لكن لا بأس.. عندي طعوم كثيرة، ابتداء من دواء الملاريا المغـــشوش، وانـــتهاء بجاذبـــيتي التي كنت مقتنعاً بها تماماً. فقط فلتأت الـــسمكة.. تعـــالي، أخـــذت أنادي على صورها، ورأيت الفم المليح ينفتح.. أنا قادمة.. أنا قادمة.

-7-

أخيراً تحقق الخبر، وجاءت النجمة كاتيا إذن.

كانـــت قـــد مضت عشرة أيام كاملة منذ أن التقيت بالحكومي مـــبروك، ومخزنه، وقمصان نومه الشبقة، وحشوت جيوبـــي من ماله الذي قدمه من أجل أن تبدأ الفرنسية حياتها في حي غائب. خابرته مرة وكـــان مـــشغولاً بأزمة مياه الشرب وانقطاع الكهرباء حتى عن الميناء والمستـــشفى الكـــبير، ومرة أخرى ليخبرني بأنها طلبت من قبل حكيم إفريقـــي آخـــر في بلده، واستغربت من خبث أولئك الحكماء الذين مـــنحوها لقـــباً لا يساوي درهماً في سوق الألقاب، وبالمقابل يعذبونها بالـــريالة التي حتماً تسيل غزيرة حين يطلبونها وتذهب. في تلك الأثناء تلقـــيت رداً مقتـــضباً وجافـــاً من الرحالة المقعد حاكم عذابو بعد أن أرسلت إليه استقالتي من حزبه.. كان يخبرني بأنه قبل الاستقالة، وأغلق ملفـــي في المجـــد إلى الأبـــد، تلقيت دفعات جديدة من صور الممرضة المـــلاك، من أيمن الحضاري، الذي عرف بأنها هي القادمة ومن ثم ركز مطارداتـــه في فـــضاء الإنتـــرنت، عليها وحدها. كانت مختلفة الزوايا والأحجام، ولاحظت أنها ترتدي في كل الصور ثوباً أزرق، موديلات مخـــتلفة ولـــون أزرق، صدر مفتوح ومغلق، ولون أزرق. بكيني على شـــاطئ البحر، ولون أزرق. حتى حين ظهرت مرة ببنطلون واسع من القطـــيفة في حفل خيري، كان لونه أزرق. وحين أغلقت عينيها أمام كاميرا ساطعة لمصور فضولي، كان طلاء رموشها أزرق. كان اكتشافاً

مـــذهلاً في الحقـــيقة، جعلـــني أعيد ترتيب حساباتي كلّها، أعود إلى الإغريقـــي كوستا في السوق الكبير، أفاوضه بمشقة، واستبدل قمصاني وبناطيلـــي الـــتي اشتريتها منه، بأخرى كلّها زرقاء، وألتفت إلى بيتي، أنقـــب عن الأزرق بداخله لأجعله في الواجهة، وكان شيئاً ملفتاً للنظر حقّـــاً حين رآني الناس، مشمراً عن ساعدي، أدهن بيتي القديم بطلاء أزرق لم يكن مألوفاً في الحي أبداً، سألوني، فأجبت بأنها رؤيا جاءتني في المـــنام. تلـــك الأثناء أيضاً، عاد منعم شمعة من الصين وزرته في محله، لألاحظ بأنه لم يفجع بوفاة النبوي التي حدثت في غيابه، ولو كذباً، أو يسأل عن خبر الفرنسية الذي بات السؤال المحوري في الحي منذ أتيت به من المحافظة. فقط كان يتحدث عن مبردات للماء تعمل بلا كهرباء، ولا غـــاز ولا أي طاقـــة معـــروفة، طرحت هناك، ونيته في جلبها إلى البلاد، ومادة الصمغ التي نصدّرها، ولا نعرف لها قيمة، لكن الصينيين يصنعون منها العجائب، وبابتسامة متسعة، يتحدث عن ترانيم المضيفة التي التقاها هذه المرة أيضاً في الرحلة رقم صفر صفر تسعة دبي- بكين، وأمكـــنه أن يجر من فمها سنتمرات إضافية من الابتسامة، حين أخبرها باســـم محله الذي سماه بها، وأن يحصل على عنوانها في الشام حتى إذا ما فكر في الزواج، طرق بابها.. سألني بمجون: هل يختنون النساء في الشام في رأيـــك يا جرجار؟ قلت.. ربما.. قال: ليتهم يفعلون.. ليتهم. ولأن موسى خاطر الأمني، جاء هذه المرة أيضاً، واستلم علبة مغلفة من شمعة ومضى من دون سلام، اضطررت إلى سؤاله:

- ما الذي تحضره لموسى في كل مرة؟
- أشـــياء تافهـــة: واقيات ذكرية.. حبوب منع حمل.. طفايات للـــسجائر.. روايـــات أرســـين لوبين من مكتبات دبـــي.. لا تهتم.

رد وسيجارة جديدة تسعى لاحتلال مكان سيجارة محترقة.

لكـــن أهم ما حدث في تلك الأيام، ما تم توثيقه من علاقة حب جارفة نشأت بين شاكر تعيس، والجميلة جدّاً سلافة، وفسر لي ذلك، ســؤالها عـــن عمره في ذلك اليوم الذي طرقت فيه بابـــي، وسرحانه المتواصـــل حتى ونحن في المقابر ندفن النبوي. ولا أدري ماذا شد تلك الظبـــية إلى واحـــد مـــثل شاكر تعيس، فرت زوجاته السابقات وهن عرايس في شهر العسل، إضافة إلى تواضع رزقه، وميله إلى الصمت حتى وهوســـكران بخمـــور آل مسيكة، لم أجد تفسيراً حقيقة، ولا أخبرني تعـــيس الذي كنت ألتقيه يومياً، ولا سلافة التي شاهدها مرتين وفرت من أمامي، لكن القبطي ميخا جاءني ليقول:

- اكتشفا فجأة أنهما خلقا لبعضهما البعض، سيتزوجان قريباً.. وستكون كاتيا الفرنسية هي ضيفة الشرف في حفل الزفاف.. لا تـــنس موضوع هجرتي يا جرجار.. ضعه من أولوياتك.. أرجوك.
- وهل جهز شاكر نفسه للزواج؟
- جاهز منذ مدة.. حتى الذهب أحضره.. وبطاقات الدعوة في المطبعة.

سألته بغتة:

- أين ذهبت جوليا روماني بعد إغلاق مقهاها؟
- في المستشفى.. يعالجونها من نـــزيف دماغي.

قال القبطي ودمعة كبيرة انـــزلقت من عينيه:

- هي التي باعت يا ميخا و لم يجبرها أحد.
- لم يجبرها أحد؟

تهيج خداه حتى صارا أحمرين..

- من قال لك لم يجبرها أحد؟.. خيرت بين البيع والمصادرة، واختارت الضرر الأخف، ماذا كانت لتفعل؟

ماذا كانت لتفعل؟ وماذا كان أي أحد آخر ليفعل لو كان يملك متجراً في موقع من المواقع التي يحبها الاستثمار.

المخابرة كانت من مبروك، تلك التي رن بها هاتفي، بموسيقى فرنسية عثرت عليها عند أحد باعة الهواتف المحمولة، وأدخلتها الهاتف على الفور، أغنية لم أفهم معناها بالتأكيد، لكنها بدت لي حالمة، ولا تشبه صراخ كاتيا البطة، الذي نفرت منه ذلك اليوم. بهذه الموسيقى أكسب نقطة إيجابية، وباللون الأزرق نقاطاً أكثر، وربما حين اقترب أكثر، تذوب كل العوائق. بالأمس فقط أخبرني أيمن الحضاري، أن كاتيا مطلقة وبلا زوج أو صديق حتى الآن، وعضضت على ذلك الخبر حتى أدميته.. والآن يرن مسؤول كبير في هاتفي:

- تعال إلى مكتبي حالاً يا جرجار.. لقد وصلت صاحبتك.
- وصلت حقّاً؟
- نعم.

وأغلق الهاتف من دون إضافة.

دخلت في أناقتي الزرقاء على مهل، بنطلون أزرق غامق، قميص قطني أزرق فاتح. انتعلت حذاء باتا اللامع، ومسحت شعري القليل بدهان فازلين، ولم أنس أن أعطر جسدي بشيء من الكولونيا. وخرجت مستمتعاً بعدم صرير الباب وهو يفتح ويغلق، ولم أخبر أحداً بالأمر، بالرغم من أن عشرات الناس التقوني، استغربوا من أناقتي الزرقاء، وسألوني ماذا حدث؟. كنت على يقين بأنهم سيعرفون قبل أن تفارق قدماي الحي. كان العثور على سيارة للأجرة في حي غائب، أشبه بالعثور عليها في حي البساتين الراقي، واحد لشدة فقره، والآخر

لعدم احتياجه. وقفت لساعة أنتظر، حتى هبط فرفور المغني من إحداها، برفقة عوده القديم، فركبتها بسرعة من دون أن أحيي فرفور، أو أسمح لعـيني أن تـرى دهـشته التي حتماً اندهشها وهو يراني بذلك الزي الغريب، وأركب عربة للأجرة.

أمام مبنى المحافظة عثرت على سريرة بائعة الشاي الموعودة بالزواج مـني، ولا تـريد أن تفلـت ذلك الوعد، لكنها لم تعرفني، حتى حين تعمـدت أن أشتري منها كوباً وأدلقه على الأرض قبل أن أدخل من الباب. كان الجو غائماً، ورائحة لمطر بعيد، وخلته الجو المناسب لبداية حياتي الجديدة.

كـان مبروك جالساً على مكتبه العريض، يرتدي قميصاً أبيض، وربـاط عـنق أحمر، حين تجاوزت ملكة السكرتيرة ودخلت، أمامه مباشـرة تجلس فتاة سوداء البشرة وضئيلة الجسم، على جسدها قميص بلون الأرض، وعلى رأسها غطاء تهيجت فيه الألوان كلّها فلا تعرف له لوناً، وكان عنقها محاطاً بقلادة من القصدير وفي عينيها رمد. لم ينهض مبروك من جلسته ليصافحني، لكنه قال:

- هـذا علي جرجار من حي غائب الشعبـي.. وهذه سومية أحمدو من ساحل العاج.

ابتـسمت للفتاة بلا معنى حقيقي، وابتسمت هي لتظهر أسنانها مفرقة وصفراء.

عاد الحكومي يقول:

- والآن اصطحبها معك.. أنا مشغول جدّاً.. لدي اجتماع بعد عدة دقائق.. أظنني أعطيتك نقوداً من قبل، أليس كذلك؟
- اصطحبها إلى أين؟

قلت وقد أحسست أنني بلا ريق يبل الحروف لتخرج.

بدا مبروك مستغرباً وهو يقول:

- أليست صاحبتكم التي تنتظرونها؟.. ماذا بك يا جرجار؟

كـــنت علـــى حافة الغيبوبة في تلك اللحظة، بل بدأت أدخلها بالفعـــل، لكـــنني تماسكت حتى لا أسقط قبل أن أعرف ما حدث، لم يكن كل ذلك الدوار في دمي، ودم سكان غائب طيلة تلك الأيام، التي مـــضت من أجل فتاة مصابة بالرمد، والأنيميا، ومن بلد لا يقل تراجعاً عن حي غائب، بل يفوقه. لا بد من تفسير، وسأناله الآن قبل أن أعود إلى ثوبـــي وعمامتي التقليديين، ونساء الفقر، أغازلهن من جديد، قبل أن أمـــوت بالـــسكتة القلبـــية، ويدفنوني بجوار النبوي تحت أشجار المسكيت المالحة.

- سيد مبروك.. نحن ننتظر كاتيا الفرنسية، وليست هذه.

ورغماً عني وجدت يدي تشير إلى فتاة الأنيميا وأنا أقول "هذه"، وكانت تبتسم مضيفة إلى حوارنا بهاراً مرّاً.

- كاتيا الفرنسية.. كاتيا كادويلي..

خبط مبروك على رأسه وهو يضحك..

- آســـف.. آسف جدّاً يا جرجار.. لقد اختلط علي الأمر من كثرة الأعباء.. هذه ليست صاحبتكم بالتأكيد، لكنها جاءت لـــزيارة شيخ العواني، لتتدرب عنده لمدة ثلاثة شهور بناء على منحة منه. إنها طالبة في كلية الدجل والشعوذة في بلدها وعلى وشك التخرج.

ارتحت قليلاً لكن ما زالت ثمة بقية من قلق.

- وأين صاحبتنا إذن؟.

بحـــث مبروك بين أوراقه، ليخرج منها ورقة من أوراق الفاكس، تأملها قليلاً مستخدماً نظارة للقراءة، ثم قال:

- يــبدو أنها مغرمة بالحكماء الأفارقة أو هم مغرمون بها، لأنها تطــوف من بلد إلى آخر مقيمة في ضيافتهم.. سأخبرك حين يجد جديد، ولن أخلط الأمور مرة أخرى.. هذا وعد.

ثم مد يده إلى هاتفه، طلب رقماً ما، وسمعته يقول..

- نعــم يـا شيخ عواني.. إنها في مكتبــي وتنتظر مندوبكم.. حاضر.. حاضر.. مع السلامة.

لا أريد أن أصف دواري الذي خرجت به من عند مبروك، الذي جلـست به أمام سريرة وطلبت به شاياً كنت أحتاجه، وهي لا تعرفني بالــرغم من أنني قلت لها أنا علي جرجار زوجك الذي تنتظرينه. ولم تـصدق. كنت محبطاً ومغتاظاً، وبت أضمر حقداً شرساً لإفريقيا من رأســها حتى قدميها، تلك التي لا تريد أن تفلت العطر حتى نشمه، لا تــريد أن تعيننا على التغيير الذي بدأناه بالفعل، وخفت في قمة توتري أن يتجاوز أولئك الحكماء معنى قبولها للقب الملاك وضيافتهم السخيفة إلى أبعد من ذلك، حيث يتقاتلون عليها بثروات شعوبهم، ومن ثم تنسى حي غائب وتلك الدراسة التي تشارك فيها. لا أريد أن أسأل نفسي عن هويتي، والمعنى الذي قد أعنيه للفرنسية حتى لوجاءت وسكنت في قلب بـيتي.. فقد وطنت نفسي على حبها وأنني رجلها الذي ستأتي لتعانقه. لـست مجنوناً لكنني قد أجن في أي لحظة، ولست متوهماً، لكن الوهم قريب، وقريب جداً.

ركـبت باصـاً متجهاً إلى الحي، متجاهلاً سيارات الأجرة التي كانــت تشدها أناقتي الزرقاء، فتبطئ السير قربــي، تركت الرجرجة يــزدحمون حولي، يوسخون ثيابــي، يبصقون على حذائي الباتا، ولم أسـتجب لـنداء امــرأة شابة رجتني أن أبعد عنها واحداً أخرق كان ملتصقاً بجسدها، وغير عابئ باستياء الناس.

أول مـــن واجهني حين نـــزلت من الباص، كان موسى خاطر. وجدتـــه في موقف الباصات يفتش مراهقاً، ويخرج من جيبه قطعة من نبات البانجوالمخدر.. قال حين رآني، وهو يبتسم:

- هارد لك... يا جرجار.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى كانت الرسائل تنهمر على هاتفي حتى من المشرد كنكل ساكن الشوارع، وهي مذيلة بكلمة واحدة: هاردلك.

وعلـــى طـــول الطريق إلى بيتي، كنت أشاهد نساء مزركشات يـــسرعن الخطى إلى بيوقمن ليعدن نساء بلا زركشة، وأطفالاً مغسولين وبلا ريالة، يحاولون جاهدين أن يحتلبوا ريالاقم، أشاهد ميخا ميخائيل دقندس يرتدي على عنقه صليباً من ذهب، لم يظهر به من قبل في الحي، وعركـــي صـــاحب الـــبقالة، وزملاءه من أصحاب المحلات متعددة التخصص، يصعدون سلالم من خشب، لينـــزلوا كاتيا التي كانت اسماً جديـــداً لمحلاقمـــم، كتبوه باللغة العربية والإنجليزية.. ويمحونه الآن، لا أدري بـــصفة مؤقـــتة أم إلى الأبد. وعلى حين بغتة اقترب مني مبدع، الولد اللئيم للنبوي الذي سماه باسم لا يشبه لؤمه. كان ثوبه نظيفاً بلا نقاط استحلام في الوسط، وفي يده ورقة سلمها لي قائلا:

- هاك قصيدة والدي التي كتبها في الفرنسية.. لم أمزقها حقيقة، لكنني كنت أود أن أصطاد بها طيراً أوروبياً.. هاك؟

الـــوغد.. هتفت في نفسي، بل الوغدان، الولد وأبوه.. وفتحت الورقة بأصابع مرتجفة، لأقرأ بخط النبوي الكلاسيكي القديم، قصيدة لم تزعجني فقط، لكنها أرعبتني:

سمعـــت عن الملاك فهاج شعري

وعـــربدت الـــصبابة في عـــيوني

وأصــبح للمــداد بــريق حرف

يــضيء لــك الطــريق فكلميني

أيـا كاتـيا الجمـيلة أيــن أنت

وأيــن الــشوق للــصب الحزين

وأيــن صــفاء نهر السين يسقي

دمــــاءك بالمحــــبة والحــــنين

لم أســتطع إكمال القصيدة، ولا عدت لقراءتها بعد ذلك أبداً.. كانــت نية النبوي مبيتة لغزو قلب الفرنسية إذن، وكان موته مكسباً، وفي وســط الرعــشة الــتي شعرت بها، سمعت عركي صاحب البقالة يكلمني:

- في المــرة القادمــة لن نعلق اللافتات التي تحمل اسمها، إلا إذا رأيناها تدخل الحي بالفعل. لقد سقط غباشي الجزار من أعلى السلم وهو يعلق لافتة وكسرت رجله، وأصيب أحد الصبيان بطعنة مسمار في قدمه ولم نعثر له على مضاد للتتانوس. سلام يا علي... يا جرجار.

- 8 -

شـــهران كئيبان مرا، ولم يظهر أي خيط جديد يصلح لتتبعه في موضوع أرَّقني وأرَّق سكان الحي كلهم. وأخبرني أيمن داؤود الحضاري في أحـــد الأيـــام، إنـــه لم يعد يملك أية إضافة مبدعة بخصوص ذلك الموضوع، وقد بدأت الباحثات الإليكترونية في الإنترنت، تتذمر بمجرد أن ينقـــر على اسم كاتيا في إحداها. والحقيقة أن الصبـــي لم يقصر، زودني حتى بعدد مقادير الملح وصلصة الطماطم والبهارات التي تضيفها لكل طبخة، وموعد تجديد جواز سفرها، ورخصة قيادتها والتأمين على الحـــياة. اختـــرق ملفها في عيادات الأسنان والباطنية وأمراض النساء والتولـــيد، بمعاونـــة هاكر محترف، واكتشف أنها أزالت ورماً ليفياً من الرحم منذ عدة سنوات، عولجت من الإرهاق مرتين، ونصحها طبيب الأســـنان ببيع ابتسامتها للصحف والمجلات، باعتبارها أرقى ابتسامة في أوروبـــا. كنت أهيج وأبرد، أعرق وأجف، أرن للحكومي مبروك في هاتفـــه المحمـــول، وما عاد يرد على اتصالي، أحاول هاتفه الأرضي في المكتب، فتصدني تلك الرسالة الآلية المملة:

"مـــرحباً.. أنـــا مبروك خضر.. عند سماعك لرنين الجرس، ضع اسمك ورقم هاتفك، وسنرد عليك لاحقاً".

أضع اسمي ورقم هاتفي، ولا يأتي ذلك اللاحق أبداً. وقد حاولت في مـــرات عديدة أن أذهب إلى مبنى المحافظة، اقتحم مكتبه كما كنت أفعـــل في السابق، لكن أواجه برجال الأمن من شركة "لا مخاطر"، التي

أنـــشأها أحـــد المـــسؤولين الكبار مؤخراً، واشترت الحكومة خدماتها بالكامل لتوزعها على مكاتب من تراهم يستحقونها. وفي المرة الوحيدة التي اقتنصته فيها بعد أن هبط من سيارته أمامي، عانقني بود، اعتذر عن مشاغله التي أنسته حتى اسم عمته سكينة التي ربته، فناداها باسم عمتي زيـــنب. ثم أضـــاف: إن الفرنسية كاتيا بدأت مرة أخرى تكرار حلقة الحكمـــاء الأفارقـــة. دعـــوة من حكيم.. من حكيم آخر، وثالث.. وهكـــذا.. لا نـــدري مـــتى تنتهي تلك المسألة. ثم فجأة تغيرت تعابير وجهه:

- لكـــن قـــل لي يـــا جرجار.. لماذا أنت مهتم هكذا وبائس هكذا؟.. جاءت أم لم تجيء.. هذا شأنها.. لماذا أنت مهتم؟

لم أكـــن أملـــك ردا حقيقة على استفساره. ولم يتماد مبروك في نبش لحمي، أدخل يده في جيبه، سلمني رزمة جديدة من المال من دون أن يوضح أوجه صرفها، ثم انفلت مهرولاً إلى داخل المبنى.

ذلـــك اليوم أيقنت تماماً بورطة القلب التي زرعته فيها، أن يهجر نـــساءه الفقـــيرات الوديعات، المتاحات في كل ركن، ويركض خلف عـــشق لا يود أن يصير، خيال لا يود أن يصبح حقيقة.. تعاسة لا تود أن تـــصبح سعادة. ماذا ترى يحدث في تلك الضيافات الإفريقية؟وماذا تقـــدم لهم ممرضة اكتشفت غشاً في دواء الملاريا، وأصبحت نجمة؟. لو كانت راقصة من راقصات الإستربتيز، لقلنا سياحة لغرائزهم في جسد لا يشبه أجساد إفريقيا، لوكانت مغنية كـــ "كاتيا البطة"، لقلنا تهزهم بصوتها، وربما تمجد نضالهم ضد عنصرية اللون في عدد من أغنياتها. ولو كانت طاهية للحوم الخراف والبقر، ربما أدمنوا طهوها وعينوها لديهم. أحســـست بـــأن ذهني قد تعب، قدماي تعبتا، وجسدي كله فريسة للـــتعب. وقـــررت أن أستريح ولم أستطع. كانت صورها تملأ البيت،

لــونها الأزرق علــى الحوائط، وأواني الطبخ، وكل شيء.. وأهم من ذلك، تغييرها لتذوقي، فما عدت أتذوق امرأة سواها.

جــاءتني زهورات الإثيوبية ذات يوم، قالت إن حليمة المرضعة تــريدني فــوراً لأمر هام، نهضت من تعبــي وتبعتها، كانت الحياة ضــاجة في الحــي، دخول وخروج، وثرثرة وضحكات، وصراخ أطفــال. شاهدت فجأة فتاة ساحل العاج صاحبة الأنيميا والرمد، تهــبط من سيارة فاخرة برفقة رجل عريض، ومعمم، يحمل في يده حقيــبة، واستنتجت على الفور إنها برفقة شيخ العواني تتلقى تدريباً في الــدجل في حي يعشق الدجالين بشدة. ابتسمت لي، ولم أبتسم لها، ومضيت في طريقي. وصلنا إلى بيت المرضعة، ولاحظت أن جملة "أعطــني أعطــك" المكتوبة على الباب، قد تحسنت، وكتبت بيد خطاط محترف. البيت في الداخل أيضاً بدا مختلفاً عن المرة السابقة، كانــت ثمة أسرة جديدة، وثلاجة كهربائية، وجهاز لقتل الحشرات معلــق على السقف، يضخ لوناً بنفسجياً. لم أسأل الإثيوبية، لكنها بادرت:

- هــذه هــدايا من منعم شمعة.. لقد بشّرته المرضعة بأمر صفقة تجارية كبيرة في الصين وكسبها بالفعل.

لم تكن حليمة ودودة هذه المرة.. وقالت بصوت باتر:

- أين إيجار غرفتي للشهر الماضي يا جرجار؟
- أنت تعرفين أن كاتيا لم تحضر.
- كفك ما زالت عرقانة.. هاتها لأقرأها.. هاتها.

لم أعطهــا كفي لا في ذلك اليوم، ولا في أي يوم آخر. لم أكن أريد كتابــي أن ينفتح أمامها مرة أخرى، وأخاف أن يكون مصيري قد غدا بائساً، ومن ثم أسمع صرختها المميتة.

- إذن أعطـــني مفتاح غرفتي، العمدة صاحب الحلال في طريقه إليـــنا بعـــد أن تحسن الوضع في الجزيرة الخضراء، وحصدوا القطن والقمح، لديه نساء وصبيان يملأون كل الغرف، أعطني المفتاح.

أدخلـــت يـــدي في جيبـــي، لا لأعطيها المفتاح الذي بت أحبه أيـــضاً، ولا يفـــارق جيبـــي حتى حين أستلقي لأنام، وأتلمسه كلما أحســـست بالعطش، ولكن لمنحها إيجار غرفتها مضاعفاً لمدة شهرين آخرين. بدت على وجهها الكئيب علامات رضى أكيد، ولان صوتها حتى تحول إلى نجوى، وهي تغني واحدة من أغنيات الأفراح التي سادت مـــنذ ربع قرن.. وهي تنادي على الخادمة لتصنع عصيراً مثلجاً للوجيه علي جرجار.

كـــان ميخا ميخائيل دقندس قد بدأ يزعجني بشدة بعد أن ماتت جولـــيا روماني متأثرة بالنـــزيف الدماغي، وهجر شاكر تعيس صداقته لانغماســـه في حـــب الجمـــيلة جداً سلافة، وتخطيطه لطقوس العرس والمستقبل معها. لم يكن يمكث في بيته إلا دقائق معدودة حتى يفر منه، يبكي أمام مشروع برج التوبة العملاق، أو مصرف بروق، ويعود إلى الحي طارقاً بابـــي من دون كلل.. ضع هجرتي في أولوياتك يا علي.. ضـــعها أرجوك. أفهمته مئات المرات بأنني لا أملك مفتاح هجرته، ولا هجرة أي شخص آخر في الوقت الحاضر، وعليه انتظار المعجزة، كان يقـــول.. لا توجد معجزات في الدنيا، لكن توجد حلول عملية.. أنت تملك بعضها. وحين بلغت حداً لم أعد أستطيع فيه إفراغ مستقيمي من دون أن يكون حاضراً، ومتابعاً لعملية الإفراغ من بدايتها حتى نهايتها، ألبسته ثوباً وعمامة من ثيابـــي النظيفة. أخذته في يوم جمعة مبارك إلى الجامـــع الكبير في وسط السوق، حيث يصلي الوجهاء والأثرياء وقادة

العمـــل الحكومي في المدينة، وجدنا بالكاد موضعاً نجلس عليه، لنستمع إلى خطبة الإمام التي كانت بالصدفة عن سماحة الدعوة، والأجر الكبير من إدخال رجل في الإسلام. كان ميخا يستمع بلا حماس، كانت يداه ترتعـــشان بشدة وقد احمرت إحدى عينيه فجأة، وحين انتهت الصلاة وقبل أن يتفرق الجمع، وقفت أصيح وأنا أشير إليه:

- معـــي الأخ ميخا ميخائيل الذي سمى نفسه مختار وجاء لينطق بالشهادة.

هـــتف المصلون بصوت واحد: الله أكبر.. الله أكبر.. تهلل وجه الإمـــام بشدة وهرول إلى حيث مكاننا، أخذ ميخا من يده إلى المقدمة حتى يراه الجميع، ثم أنطقه الشهادتين ببطء، فنطقهما متلعثماً لكن من دون أخطـــاء. أفلته الإمام، واقترب مني ليهمس لي بضرورة أخذه إلى المستشفى لختانه حتى يكتمل إسلامه، وتدريبه على أمور الدين متى ما تيسر الأمر. وكدت أضحك وأنا أتخيل كهلاً في الستين، تجز لحمته التي عـــاش بها كـــل ذلك العمر، وأنجب بها أطفالاً كبروا، وهاجروا إلى أستراليا، وحين خرجنا ووقفنا أمام المسجد، لنتلقى تبرعات أهل الخير، وتهنئتهم، ووعودهم بمستقبل جديد لميخا، كما هي العادة في مثل تلك الأحـــوال، لم يأتنا أحد. قفز الوجهاء إلى عرباتهم وانصرفوا، ليتركونا برفقة رجل من السجل الشرعي، وثق إسلام ميخا، واسمه الجديد على دفتر كبير يحمله، ولوح له بحد الردة، الذي هو القتل، إذا راودته نفسه بالعودة إلى النصرانية مرة أخرى.

كان موقفاً معقداً ذلك الذي تعقد به ميخا. لم يخرج بلا دعم بعد أن أســـلم، فقـــط، لكـــن بسيف مسنون على رقبته لو جاءت سيرة الذكـــريات مرة أخرى على لسانه، رافقني إلى حي غائب وهو يبكي، أنفق ما تبقى من النهار، والليل الذي قضاه في بيتي وهو يبكي، لم يعد

بإمكانه أن يذهب إلى برج التوبة أو مصرف بروق، أو قبر الأب مكارس ليحاول استعادة شيء من الذكريات، لم يعد بإمكانه أن يشم النسيم في عيد شم النسيم، أو يلتقي بمن تبقى من أقباط المدينة، في عيد الميلاد ليقول بملء حلقه ميري كريسماس، وقد فهم من الموثق الشرعي الذي وثقه أمام المسجد، أنهم سيتحققون من ختانه بعد عدة أيام، ومن صومه رمضان حين يأتي الشهر الفضيل، وقد يطالبونه بزكاة أمواله إن ثبت أن لديه أموالاً حال عليها الحول.

قلت وأنا لست واثقاً تماماً، وأحس بشيء من الذنب في ورطته، وأيضاً من الانزعاج بسبب ذلك الحبل الذي ربطت نفسي به كوني راعياً لإصلاحه، في وقت كنت فيه مبعثراً ومعكّر المزاج، أنتظر كاتيا الملاك ولا تأتي:

- يوجد حل يا أخي.. لا تبتئس.

كان قد قفز إلى ذهني في تلك اللحظة، ذلك الخبر العريض الذي سمعته من البعض، عن وجود مندوب عربي للهجرة جاء من إحدى الدول الأوروبية، ليجري معاينات للراغبين في الهجرة، ويقيم في أحد فنادق المدينة. في الحقيقة أنني سمعت بالخبر منذ عدة أيام لكنني نسيته وسط ارتباكي، لأتذكره الآن فجأة بعد أن تورط ميخا ورطة لا رجعة فيها.

حدثته بالأمر، وأخذته إلى فندق الرأسمال الفاخر، حيث يقيم المندوب. كان الزحام على أشده في ذلك الصباح، وقد أفردت إدارة الفندق أكبر قاعاتها لاحتواء تلك الفوضى، كان يوجد شباب أقوياء وكهول يقتربون من النهاية، أمهات يرضعن أطفالهن على مرأى من الناس، وجدات يتوكأن على العصي، عثرنا على المشرد كنكل ساكن الشوارع، يعبث بهاتفه المحمول وهو ينتظر، ومبدع النبوي، يرتدي

قميصاً تي شيرت وبنطلوناً من الجينـــز، ينتظر أيضاً، وحام حولنا عدة أشـــخاص يـــشبهون موسى خاطر في مشيتهم ونشاط أعينهم، وبعد ســـاعات من العرق واللهاث، وتخثر الأنفاس، وسقوط عدد من كبار الـــسن في نوبات إعياء، جاء دورنا لنقف أمام المندوب. كان شاباً في ثلاثينيات العمر تقريباً، شعره مصبوغ بلون بني، وينسدل حتى الكتفين، يرتدي ثياباً سوداء من قماش فاخر، ولمحت على أصابعه التي تنقر على كومبيوتـــر محمول، طلاء أظافر أحمر اللون، وحين تحدث كان صوته، صوت أنثى:

- من منكما طالب الهجرة إلى لوكسمبورج أيها السيدان؟

أشـــرت إلى ميخا ميخائيل، وأنا أحس بالغثيان وباحتمال ورطة موجعة أخرى تنتظره، لكن لم تكن ثمة خيارات.. قلت:

- أخـــي ميخا ميخائيل.. عازف أورج مبتدئ كان في كورال كنيـــسة العذراء قبل أن تهدم، لكن سيكمل تعليمه.. ويصبح عازفاً كبيراً، أيضاً يجيد تربية البط.. و..

لم أعثر على جمل أو مؤهلات أخرى أضيفها إلى سيرته الذاتية.. فسكت.

ألقى المندوب نظرة عجلى على ميخا، لا أظنها حتى لامسته ثم قال:

- لن نهاجر بكهل مثل هذا ليموت من الصقيع، أو من النشوة في أحـــضان امرأة.. آسف يا مربـــي البط.. نحن لسنا في الغرب الأمريكي.. نحن في أوروبا.. انتهت المقابلة..

ثم رفع صوته الأنثوي صائحاً:

- الذي بعده.

رأيـــت ميخا يترنح كسكران، فأسندت ظهره، وبدافع الفضول سألت المندوب الأنثوي:

- ما هونشاطكم بالتحديد؟.
- اكس اكس لإنتاج أفلام الإيروتيك.. نحن أكبر منتجين لها في أوروبا، ألا تشاهد تلك المتعة يا رجل؟

رد، ويده الناعمة تتحرش برقبتي..

كـــان مـــيخا غائباً عن الوعي تقريباً. اضطررت للاستعانة بعدة رجـــال مـــن العاملين بالفندق، حتى أخرجناه من الغرفة، سقيناه الماء والـــسكر، واســـتيقظ في النهاية ليمضي معي منكس الرأس وبلا أي صـــوت حـــتى خيل إلي أنه أصيب بالخرس. كانت ثمة ضجة في حي غائـــب حـــين وصلنا إليه، وكانت تنبعث من بيت النبوي حيث يقيم ولـــداه اللذان تركهما. واكتشفنا أنها طبول للفرح يدقها مبدع النبوي الذي اختير للهجرة إلى أوروبا بواسطة ذلك المندوب الأنثوي، وكنت واثقـــاً تماماً أنه يدري بحجم المزبلة التي تنتظره هناك، ويدق الطبول من أجلـــها. لم أرد أن آخـــذ ميخا إلى بيتي من جديد، حتى لا يعوقني عن الانفراد بصوري ومشاعري. قدته إلى بيته الذي لم يكن بعيداً عن بيتي، وهناك وجدنا بابه مكسور القفل، وقد اختفت كل حياته النصرانية التي عاشها لأكثر من ستين عاماً. لا صليب.. لا وشاحات.. لا تراتيل، ولا كتاب مقدس.

- لم يبق شيء من الماضي إذن.

لا أدري هـــل هـــو الذي قالها، أم أنا، أم لا أحد لكنني تخيلتها. أرقدته على سريره الخشبـــي المترنح، كأنني أم ترقد طفلها، وجلست زهاء الساعتين أستمع إلى أنينه، وأبتئس أكثر.. بالأمس وقبل أن آخذه ليتوثق مسلماً، كلمت عركي صاحب البقالة، في شأنه.. قلت سنعود من صلاة الجمعة لنجدك قد أعددت رسالة بخصوص ميخا.. هذا مهم يا عركي، لكن الرجل لم يبد متعاوناً هذه المرة، وخمنت إن عدم مجيء

الفرنـــسية التي ملأ محله بأغراض أحس أنها ستستهلكها أثناء إقامتها في الحـــي، قـــد أثر على طيبته، وشهامته في مثل تلك الظروف. قال من طرف لسانه:

- دفتـــري ممتلـــئ بالديـــون يا جرجار، وأمامي خمسمئة بائس ينتظرون دورهم لدى جمعيات الخير.. دعه ينتظر إذا أراد.

-9-

لا أذكر بالتحديد متى بدأت علاقتي تتوطد بصور كاتيا الملاك التي قطعاً دخلت في الحلقة الرابعة أو الخامسة من مسلسل حكماء إفريقيا، لتتحول تلك العلاقة إلى شراكة حقيقية بين رجل وامرأة، ذكر وأنثى، لكــن ذلــك حدث غالباً في أعقاب تشكيل وزاري مباغت حدث في العاصــمة، دخــل على إثره صديقي مبروك خضر إلى الوزارة، وزيراً لــشؤون الأقليات، وأول وزير لتلك الوزارة المستحدثة. لم يكن ذلك أمراً مستبعداً بالنسبة لمبروك، ولا لأي شخص آخر، في بلد أصبح فيها زكــريا حــنقة ناظر محطة السكة الحديد وزيراً للمواصلات، وكردي الذي كان مشرداً يشم البنــزين في محطات تموين السيارات، وينام في الأزقــة، رائداً بجهاز الأمن العام، والممثل الفكاهي فتحي فتاح، سفيراً للــبلاد في إحــدى دول أميركا اللاتينية. وكان الرحالة حاكم عذابو بالرغم من شلل أطرافه، وإنشائه لحزب معارض مغمور، دائماً ما يتوتر عــند انطــلاق أي إشاعة لتغيير وزاري محتمل، كانت في نفسه قناعة كــبيرة بأنه سيستدعى ذات يوم من قبل رئيس البلاد، ليكلف بتشكيل وزارة جديدة. أذكر أنني ذهبت لأهنئ مبروك على اختياره وزيراً بعد أن ســافر وأدى القــسم أمام الرئيس، وعاد لتسليم منصبه القديم إلى شــخص آخــر. وجــدت المحافظة ضاجة بالأناشيد وقوالب الحلوى، وابتــسامات الــنفاق من موظفين كانوا رؤساءه أو كان هو رئيسهم، ورجــال الأمــن من شركة "لا مخاطر" متوافرين بكثافة، يفتشون حتى

الـــذباب لـــو حـــاول الدخول. وقد أضافوا إلى الشعار المكتوب على قمصانهم، جملة "نحميك حتى من نفسك".

قلـــت لهم: أنا علي جرجار صاحب صيحة التخيل الشهيرة التي يعـــرفها أي شخص. فلم يعن لهم ذلك شيئاً. قلت: أنا صديق الوزير مبروك ويتوقع أن أزوره اليوم، فابتسم أحدهم قائلاً:

- صديقه قبل أم بعد؟
- وما الفرق؟
- الفرق كبير جدّاً.. قبل تعني ماضياً سيندفن عميقاً، وبعد تعني مصلحة ستتم بين الطرفين لاحقاً. هل فهمت؟

وكان صادقاً في حديثه، لأنني رابطت أمام مبنى المحافظة حتى خف الضجيج كله، وخرج مبروك برفقة حارسين من ذات شركة لا مخاطر، يـــضعانه في وســـطهما ويتلفتان حولهما في حذر، صحت: مبروك.. مبروك.. سعادة الوزير.. أنا علي جرجار، لكن الوزير لم يلتفت، كان وجهه منتفخاً بعض الشيء، في عينيه طرب ما، وهاتفه المحمول يرن بلا انقطاع في جيبه من دون أن يمد يده ليسكته. وحين التقيت بالسكرتيرة الإثيوبـــية ملكة بعد عدة أيام في السوق الكبير، رأيتها صفراء، ونحيفة وفي وجههـــا خزي لم تحاول إخفاءه عني. قالت: أنا حامل وعاطلة عن العمل، وأمي مريضة بالسرطان، وحتى محل تصفيف الشعر الذي كنت أعمل فيه، يرفض عودتي إليه.. ثم سقطت على كتفي وهي تبكي.

كـــنت أفكر باستمرار في موضوع كاتيا الفرنسية، وكنت موقناً بـــأن ملـــف زيارتها المرتقبة، قد قدم للمسؤول الجديد ليقرأه ويتابعه، وتمنيت في قرارة نفسي أن يكون أنشط من مبروك، ليأتي بالأخبار من مـــنابعها في إفـــريقيا، لا لينتظرها حتى تأتيه. كانت المعضلة في كيفية الوصـــول إلى المسؤول الجديد، الذي أخبرتني ملكة بعد أن خفت نوبة

بكائهـــا، إنـــه من حي مايو الشعبـــي، اسمه عبادي عبادي، وكان في الـــسابق خارج البلاد ضمن حركة للتمرد وقعَّت صلحاً مع الحكومة مؤخراً، واستوعب جميع أفرادها في الدولة.

- ومن سكرتيرته التي حلت محلك؟

كان سؤالاً حساساً، لكنها ردت عليه بجسارة:

- ليس لديه سكرتيرة في الواقع.. ولكن سكرتير.. رجل.

كـــان أمراً غير مألوف أن تدخل مكتباً حكومياً، أو خاصاً يضع وجهـــاً خـــشناً في الواجهة، لكنني استبشرت خيراً. كنت مقتنعاً بأن المـــسؤول الذي يستغنى عن ذلك المخزن الشبقي، وتمايل السكرتيرات وغـــنجهن أثناء تقديمهن لأوراق التوقيع، لهو جدير بالاحترام. حزمت أمـــري وذهبت إلى مبنى المحافظة، تملصت من رجال شركة "لا مخاطر" بصعوبة بعد أن فتشوا حتى عيني وأماكني السرية، ورأسي القليل الشعر، وقفت أمام السكرتير، وكان لدهشتي رجلاً مسناً أبيض الرأس واللحية، نائمـــاً علـــى مكتـــبه، وثمة لعاب غزير يخرج من بين شفتيه. تجاوزته بسرعة، ونقرت باب المسؤول لأسمع صوتاً خشناً يقول: أدخل.

كان المسؤول الجديد عبادي، رجلاً بلا ملامح تقريباً، وقد تشوه نصف وجهه بحريق ما.. كان يرتدي الثوب والعمامة، ويدخن سيجارة برائحة خانقة.

مددت يدي لأحتضن يداً يابسة بلا مشاعر، وقلت:

- أنا علي جرجار من حي غائب.

- نعم.. نعم.. لا بد أنك دخلت موقعي على الإنترنت.. عبادي دوت كوم، وقرأت قصة الزرافة التي دربّتها على صنع الشاي والقهـــوة أيام كنت محارباً في الجنوب. كل الذين قرأوا تلك القصة جاءوا ليسألوني عن التفاصيل.

كانـــت فرصة للكذب، ولعل الرجل يماثلني في التخيل، أو يكتب قصصاً درامية للأطفال، سأكذب عليه وبعد ذلك أرى ماذا سيجد أيمن الحضاري في موقعه.

- نعم سيدي.. قصة رائعة، لكن في الوقت الحالي لدي موضوع آخر.
- قـــل وسنـــسمعك.. إلا إذا كان خاصاً بقطوعات الكهرباء، وشح الماء ورداءة رغيف الخبز.. هذه معضلات بلا حل.
- أنـــا أسأل بخصوص كاتيا الفرنسية التي من المفترض أن تزور حـــي غائـــب وتأخـــرت زيارتها كثيراً.. ماذا حدث ولماذا تأخرت؟
- نعم.. نعم.. عندي علم بذلك الموضوع.. وسأرى الآن.

أمسك بالهاتف، أدار رقماً طويلاً بدا لي لن ينتهي أبداً، ثم تحدث بلغـــة لم أفهمها لكني سمعت اسم غائب يتردد.. أغلق الخط، أدار رقماً آخـــر أكثـــر طولاً، ومتحدثاً بذات اللغة وبترديد أكثر لاسم غائب، وحين انتهى خاطبني:

إنهـــا في غينيا بيساو، في ضيافة الزعيم، وفي هذه اللحظة بالذات يقـــوم بمـــنحها لقب الجوهرة البيضاء الذي أقره البرلمان أمس فقط من أجلها.. ولديها موعد في دولة الكاميرون غداً، لتبارك فريق كرة القدم قبل سفره لمباريات كأس العالم. إنها محظوظة.. صحيح؟

لم أكـــن أشـــاركه الـــرأي بالتأكـــيد، وأنا أرى أنياب إفريقيا وأضراســـها، تعض على عطري الفرنسي ولا تفلته، من موائد الحكماء إلى مـــباريات كـــرة القدم، وغداً قد يستخدمونها مفاوضاً محتملاً في الحروب الأهلية.

قطع المسؤول خيوط أفكاري:

- لـــديها دعـــوات من نيجيريا وتشاد وبتسوانا، وجزر تمبستو، وساحل القرود، وبلاد اللخم، لمفاوضة المتمردين الذين أشعلوا حروباً أهلية أضرت باقتصاد تلك الدول.
- كل ذلك تفعله ممرضة؟

هتفت..

- ليست ممرضة يا سيد.. إنها نجمة بلقب الملاك.

قال المسؤول وثمة بريق لمع في عينيه.

- حسناً.. ومتى تتوقع أن تأتي؟

سألت، ولم يتبق في حلقي ريق أبلعه:

- لست منجّماً يا أخي.. أنا محارب قديم ليس إلا.

كان كلاماً مراً وددت لو أنني لم أسمعه، ولا ورد أي خيط يخصنا في حديث المسؤول، بالرغم من ترديده لاسم الحي في مكالمتيه. هممت أن أغلق ذلك الملف بشتم إفريقيا أمامه، والسخرية من زرافته التي تصنع الـــشاي والقهوة، والبصق على وجهه الذي شوهته الحرب، لكنني لم أفعل.. أو لم أملك الجرأة لأفعل.. لا أريد أن أخسر كاتيا، ومن العدالة أن أصـــبر، حتى تنتهي من أولئك المحتالين، وتأتي بلا مشاغل لأعانقها. قلت:

- هل أترك رقم هاتفي حتى لو..

لكنه قاطعني بحدة:

- لا تتـــرك رقم هاتفك، ولا تتصل بنا، ولا تأت إلى مكتبـــي، إلا إذا كـــنت تود أن تسمع تفاصيل أكثر عن قصة الزرافة. وأظننا نعرف أين يقع حي غائب إذا سأل عنه أحد.

كانـــت في بـــيتي حوالي ثلاثين صورة مختلفة لكاتيا الملاك، كلّها بحجم يجسد التفاصيل بجدارة، ومطبوعة بطريقة اجتهدت فيها ماكينات

الطباعة في مقهى عبد الله جنّي.. وضعتها مفرودة أمامي بعد أن غسلت الطاولة بالصابون والكولونيا، اخترت تلك التي التقطت في أحراش إفريقيا، أو برفقة زعيم من تلك القارة، وألغيتها بوضعها في صندوق قديم. بدأت أعيد ترتيب ما تبقى من الصور، وعثرت على واحدة بدت مشرقة جدّاً.. وقد التقطت في إحدى قاعات فندق كبير في العاصمة الفرنسية، وسط شموع وقوالب من الحلوى.. هذه صورة عرسي.. دققت على الطاولة.. هذه هي.. فقط تحتاج إلى طرحة بيضاء، ومراسم خاصة سأقوم بإعدادها. ثم أفرح.

أخذت تلك الصورة، وصورتين أخريين، واحدة على مقعد أخضر في الهواء الطلق، ويبدو فيها شعرها متناثراً بإغراء، والأخرى بلباس البحر على شاطئ ضاج لا بد أنه شاطئ الريفيرا. أخذتها إلى عدلي طاووس الذي كان إغريقيا ولد ونشأ في المدينة، وحاول دراسة الإخراج السينمائي في روسيا، لكنه لم ينجح، وعاد إلى المدينة ليفتتح استوديو للتصوير الفوتوغرافي، أدخل إليه حديثاً علم المؤثرات بعد أن أصبح علماً مطلوباً في البلاد، خاصة في مناسبات الأعراس، إذ يمكن أن تتحول القطة العرجاء بفضل ذلك العلم إلى فاتنة تشد اللعاب من منابعه، والمرأة المترهلة، إلى عارضة أزياء ذات خصر أكثر دقة من خصر ناعومي كامبل. قلت للإغريقي: أريدها صوراً لعروس في ليلة الدخلة، في شهر العسل، وفي كل مرحلة من مراحل الحياة الزوجية، أريدها ضاحكة وغاضبة ومستاءة، وفي لحظة الرعشة حين تنطلق منها الرعشة. وكان من حسن حظي إن ابن أختي عديلة قد ترقى إلى مراقب لأعمال النظافة، في الخليج حيث يعمل، فبعث لي بنقود إضافية كانت تكفي لإتمام كل شيء. دفعت للإغريقي أتعابه مقدّماً وأنا أستعجله. لم يطرح أي سؤال، ولم أكن أملك إجابة لو طرحه، ولا كان يعرف صاحبة

الـــصور، أو سمـــع بها من قبل. وخلته وهو يتأملني، يفكر في نـــزوات لمجـــانين لا بـــد صادفهم في حياته. وبعد عدة أيام سلمني كاتيا الملاك عروســـاً في ليلة الزفاف، وفي لحظة العناق الحميم، وبعد خمس سنوات من الزواج، وحين تصبح جدة بشعر مشوه كشعر الإثيوبية زهورات. كـــنت منتـــشياً بـــشدة، يدق قلبـــي بعنف، وأنا أرتب بيتي للحدث الكبير، عقد قراني على الفرنسية حتى لو كانت صورة، حتى لو كانت خيالاً. كنت ممتلئاً بالعشق حتى القاع، ولم تعد لي طاقة لانتظار أولئك الأفارقـــة غريبـــي الأطوار إلى أن يفلتوا المرأة التي انتظرتها زماناً، فأنا الآن أمتلكها.. وأمضي بها لمستقبل جديد.

كـــان موسى الأمني قد بدأ يراقبني بجنون في الفترة الأخيرة، ولا أدري أكان ذلك اجتهادا منه، أم بتعليمات من أحد يكبره رتبة، لكنني أصبحت ألمح دراجته كثيراً بالقرب من بيتي، أراه ملتصقاً بالباب حين أفتح الباب، وأمام المحافظة، حين أتسكع أمامها أحياناً، وحتى بالسوق إذا مررت بالسوق. وقد أخبرني شاكر تعيس، وأيمن الحضاري، وعدة أشـــخاص آخرون في الحي، بأنهم أيضاً يحسون به قريباً من مصارينهم، وفي أحد الأيام جاءتني الجرأة لسؤاله فسألته.

كان رده غريباً بعض الشيء:

- لا تخـــف يا جرجار.. أنا أقوم بتأليف قصة بوليسية عن حي غائب، شبيهة بقصص أرسين لوبين، وأقوم بدراسة الشخوص لأكتبهم فيها.

عـــاد مـــيخا ميخائيل يلح في صداقتي مرة أخرى، بعد أن زاره مـــندوبون من الإدارة الشرعية، منحوه إنذاراً أخيراً لإتمام عملية الختان الـــتي لن يصلح إلا إذا أتمها، وسلموه إمساكية شهر رمضان، قبل ستة شـــهور مـــن قدوم الشهر الفضيل، وقبل أن يغادروه، درسوه التاريخ

الهجـــري حـــتى أتقـــنه تماماً، قصوا عليه أحداث فيلم الرسالة كاملة، وجعلـــوه يشاهد على هاتف محمول، شريطاً للفيديو، تقوم فيه جماعة عراقية متطرفة بذبح مراسل صحفي أمريكي. لم أكن أسمح له بدخول بيتي الذي أعددته للفرح الكبير، وزينته بصور عروسي، في المطبخ، في الحمـــام، في غـــرفة النوم، وحتى في الصالة الخارجية تشاهد التلفزيون. كـــنت أفـــتح لـــه الباب، آخذه من يده إلى بيته، أرقده على سريره المـــتأرجح وأعود، وأخذته مرة لحليمة المرضعة، التي قرأت كفه المسلم وصـــرخت صـــرختها الرهيبة. أيضاً جعلت أيمن داؤود، يكتب رسالة مفـــتوحة إلى المغنـــية كاتيا البطة بعد أن عثر على بريدها الإليكتروني، يخـــبرها فيها بوجود رجل عظيم حرفته تربية البط حتى على راحة اليد وبـــين شـــقوق الأصابع، وجاء الرد بعد يومين من الانتظار ليقول، إن مربـــي بطّنا يربونه حتى بين خصلات الشعر ورموش العيون، لسنا في حاجـــة إليه. كان ميخا مشكلة بلا حل، وفي كثير من لحظات رداءة الـــتفكير، كـــنت أود موته.. أن تغتاله ذبحة صدرية مباغتة، أن تتعطل كليـــتاه عن ضخ السموم، أن يخرج في باص متهالك، فينقلب الباص، لكـــنني ما ألبث أن أحس بالتعاطف وأكاد أبكي مأساته كما يبكيها. وقـــد قلـــت لشاكر تعيس الذي لم تبق سوى أيام قليلة على زفافه من سلافة، أن يتقاسم معي أعباء ميخا، نحملها معاً على ظهرينا، يوماً على ظهري ويوماً على ظهره، لكن شاكر كان عصبياً للغاية، مزق عمامته وألقاهـــا بعيداً وهويصرخ.. أنا لم ألده من صلبـــي لأرعاه، وزوجتي القادمة لا تريد شريكاً في زوجها. هذا حقّها.. أليس كذلك؟

في اليوم الذي رتبت فيه كل شيء، ولم تتبق على زفافي من كاتيا المـــلاك سوى عدة دقائق فقط بعد أن تأنقت بأناقتي الزرقاء وارتديت حـــذاء الباتا، وتعطرت بعطر رائع اشتريته خصيصاً، حدث ما لم أكن

أتـــوقعه، ولم يخطر ببالي على الإطلاق.. سمعت طرقاً عنيفاً على الباب أطار الفرحة من وجهي، ووجه عروسي الجميلة التي كانت أمامي على الكرســـي المـــواجه، تنتظر عقد القران بلهفة، وهي تحدق في الشموع الملـــونة والزينة الورقية التي علقتها على السقف، وقالب الحلوى الذي اشـــتريته مـــن حلواني رامونا، وكتبت عليه بخط متعرج لكنه واضح.. "علـــي وكاتـــيا إلى الأبد". حاولت ألا أهتم للطرق وأواصل طقوس فرحـــي، لكـــني أحسست أن الباب يترنح ويكاد يسقط، انطفأت تماماً، استأذنت من عروسي، وذهبت أستطلع الأمر. كانت دهشتي عظيمة حين وجـــدت الأخ ميخا، وبرفقته شيخ العواني، وفتاة ساحل العاج ذات الرمد والأنيميا، واقفين ببابـــي. ظللت برهة أحدق في وجوههم، ويحدقون في وجهي، وخيَّل إلي لحظتها أنهم قراصنة خرجوا من بحر سحيق.

– ألا تدعو الضيوف إلى الدخول يا جرجار؟

قـــال شيخ العواني، وكان صوته عميقاً جدّاً وواسعاً جدّاً، كأنه صوت جمهرة من الناس يرددون جملة واحدة.

– بيتي ضيق يا شيخ.. وعندي عورات مكشوفة.

قلـــت، وهممت أن أغلق الباب غير عابئ بالفضول الذي تملكني لـــبرهة واستطعت إلغاءه.. هذا ليس يوم فضول، ولا يوم إحباط، ولا يـــوم قراصنة خرجوا من بحر سحيق.. إنه يوم عرسي الذي جهزت له كل شيء.. ولن أسمح بإفساده.

– غط عوراتك وتعال.. سننتظر.. أليس كذلك يا سومية؟

قـــال والـــتفت بوجهه إلى فتاة ساحل العاج التي بدت مبتهجة بشدة، وتكاد ابتسامتها الصفراء أن تغطي وجهها النحيف.. كان ميخا ســـاكناً كأنه صخرة، لا لغة، ولا تعابير في الوجه، ولا حتى رمشة من عينيه اللتين تعشقان الرمش.

- عودوا غداً.. أرجوك يا شيخ.. لا أستطيع إدخالكم اليوم..
- لا ينفع غداً.. بل اليوم وفي هذه الساعة بالذات.. غط عوراتك وتعال.. اذهب.. اذهب..

وكانت صرخة جبارة من ذلك الصوت الذي كأنه ينبع من جمهرة من الناس.

كنت أبكي لأول مرة في حياتي وأنا أتعلق بالسقف، أطيح بالزينة التي قضيت ساعات طويلة في تركيبها، ولم يقدر لها أن تكمل الفرح، ألم عروسي من مواضعها في الصالة والحمام والمطبخ، ومن مكانها على مائدة الاحتفال، أحتضنها بقوة ونبكي معاً، أفلتها لأطيح بقالب الحلوى في قاع ثلاجتي القديمة وأغلقها بمفتاح صدىء.. يا إلهي.. لقد ضاع عرسي.. لا لم يضع، فقط تأجل.. فقط تأجل.. قلت لعروسي وهي تدخل الخزانة وفي وجهها بقايا من دموع. دخلوا إلى البيت، التهموا حيطانه الزرقاء بأعينهم، وجلسوا على المائدة الاحتفالية المغسولة بالكولونيا، وكنت ممغوصاً أشاهد فتاة ساحل العاج تجلس بالضبط حيث كانت كاتيا تحتل مكان الملاك.. يا إلهي.. لن أقارن بين الاثنتين.. لن أقارن بينهما، وإلا سأموت فجأة.

- ماذا تريدون؟

صرخت، وعيناي تعبثان بصمت ميخا لا لتلوماه، ولكن لتخنقاه..

- فسر لي يا ميخا.. ماذا يحدث؟

ميخا جامد كالصخر ما يزال، وشيخ العواني هو الذي يتحدث:

- كن ودوداً يا جرجار.. نحن هنا لمساعدة أخيك ميخا حتى يهاجر.. وقد اختار خادم سليمان، واسم سيدي شمهروس منزلك لإتمام عملية الهجرة، لن نهاجم عوراتك أبداً، ولن

نشم أكثر من رائحة البخور الذي سنوقده.. وندعوك بتجرد ونكـــران ذات، لتكون ضيفاً وقوراً وثابت الأعصاب حتى لو انشق سقف بيتك، ودخلت صاعقة من الشباك، ورأيت أخاك ميخا، وقد تحول إلى امرأة لعوب.

- ينشق سقف بيتي وتدخل صاعقة.. و..

قاطع صراخي..

- انشقاق مؤقت يلتحم وحده.. وصاعقة مثل ملاءة القطن لن تؤذيك.. لا تخف.. لا تخف يا جرجار.

كـــان جـــنوناً بـــلا شك، استغربت من كل تلك الطلاسم التي أسمعهـــا، واســـتغربت أكثـــر عن كيفية اهتداء ميخا إلى هؤلاء الناس ليـــضمهم إلى قائمـــة المنغصات التي تحوم حولي منذ أن تعلقت بكاتيا الملاك. كانت غلطة بلا شك أن أصادقه، أن أسمح له بالبكاء طويلاً في ســـرتي وأمعائي الغليظة، وأن أسعى ذلك السعي الحثيث لأهاجر به.. والآن لا مفر من احتمال التبعات.. لا مفر.. سقف سينشق، وصاعقة بملمـــس القطـــن تدخل البيت، والرجل الكهل قد يفجر في أي لحظة ويـــتحول إلى امـــرأة لعوب. من هو خادم سليمان يا ترى؟، ومن هو ســـيدي شمهروس الذي ترك حي غائب كله ليختار بيتي بالذات، وفي ليلة حرصت فيها حتى على جعل مرحاضي نظيفاً لئلا تتلوث؟. سأبلغ الشرطة حالاً عن ذلك الجنون..

- لن أسمح لكم.. سأبلغ الشرطة الآن حالاً.

قلت وأنا أحاول الثبات.

- لا ينفع يا علي، صدقني، لا شرطة ولا جيش ولا أمن قومي، ولا قوات حفظ السلام.. سيدي شمهروس بالباب.. وبركاته على طول الشارع، هل تحب أن ترى بنفسك؟.

ثم اقترب من أذني ليهمس فيها:

- سـيدي سـيبارك عرسك من كاتيا الفرنسية، ألست تحبها، وتريد الزواج منها؟.. والآن قم واحضر جمراً على مبخر لنبدأ في تهجير هذا المسكين.

-10-

لم تكـــن لـــيلة ولا ليلـــتين تلك التي قضاها العواني وتلميذته العاجـــية، بـــرفقة ميخا ميخائيل دقندس في بيتي، لكنها ثلاث ليال كاملـــة، يحتـــرق فيها البخور الخانق بلا توقف. تنطلق الصرخات، والضحكات وتشنجات البكاء أيضاً. رأيت عقارب بأذناب مسنونة تتناسل في البيت ثم تختفي. رأيت ثعابين تفرز السم وهي تضحك، وانشق السقف عشر مرات والتحم. دخلت صاعقة بضوء مباغت، رقـــدت قليلاً عند قدمي وانطفأت، ونـــزع ميخا ميخائيل ملابسه فجأة، ربطها على وسطه، ورقص كفتاة ليل مدهونة بالشبق واللعنة. كان العواني ورفيقته ثابتين. ميخا يتأرجح بين الرعشة والثبات، وأنا أرتعـــد مـــن الخـــوف، أتحين الفرص لأذهب إلى خزانتي في الغرفة الداخلية، أتفقد عروسي، أطمئن على أنها لم تصب بلدغة عقرب أو سم ثعبان، أو تغتصب بواسطة سيدي شمهروس وأعوانه. أحتضنها ونبكي معاً.. قريباً جدّاً ستنقشع العاصفة.. ونتزوج.. علي وكاتيا إلى الأبد.. لن يهم ما سأدفعه لرامونا الحلواني، لجلب قالب حلوى جديـــد، ولن تهم الزينة الممزقة التي سآتي بغيرها.. علي وكاتيا إلى الأبـــد. وبالرغم من اقتناعي الشديد بعدم جدوى طقوس العواني في شـــأن مـــيخا الـــذي حددت حليمة المرضعة مصيره حين صرخت صـــرختها الـــرهيبة وهي تقرأ كفه، إلا أنني تمنيت أن يهاجر لا من أجلـــه، ولكـــن من أجلنا أنا وعروسي الملاك. كنت أزوده بالأكل

والـــشرب لأن العـــواني وتلميذته لم يكونا يأكلان أو يشربان أثناء العمل قط، وكنت أفاجأ به يأكل كتيس ملهوف، وقد زاد وزنه إلى الـــضعف في تلـــك الفترة القصيرة، وخلته يقول لي من بين صخور صـــمته، في أكثر من مرة.. تحملني يا صديقي.. سأعوضك عن كل شيء.. سأرسل لك أول أجر أقبضه من الفرقة الموسيقية التي سأعمل فيها.

في اللـــيلة الثالـــثة وفي آخرها الذي ينادي الفجر ليشرق، أطفأ العواني بخوره، عدل عمامته على رأسه، وأخرج مشطاً صغيراً من جيبه، مـــشط به لحيته المصبوغة بإتقان.. قال.. عودي إلى نفسك يا سومية.. ورأيـــت فتاة ساحل العاج، تزيل غطاء رأسها، تخرج زيتاً من حقيبتها لتدهن به شعرها، الذي كأنه رزمة مسامير صدئة، تضع بعض البودرة، والمساحيق على وجهها، وروج أحمر بلون الدم على شفتيها، وتبتسم. كانت على مقعد حبيبتي ما تزال، ولم تكن تشبهها، حتى وهي في تلك الزينة المبهرجة..

- والآن..

قال العواني بثقة، وهوينظر إلى ميخا ميخائيل في قعر عينيه:

- لا تبك عند قدمي أحد مرة أخرى يا أخي.. هم سيبكون عند قدميك حتى تهاجر.
- هل هناك جهة محددة يا شيخ؟

كان صوت ميخا الذي انطلق بعد ركود طويل، حتى أنه تنحنح مراراً قبل أن يخرجه.

- لا جهة واحدة يا أخي، بل جهات..
- ومتى يتم ذلك؟
- قريباً.. قريباً جدّاً..

ضحك ميخا بعمق، وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها ضحكته، وأراهـا مجـسدة علـى ذلك الوجه الباكي بلا توقف.. نهض العواني ورفيقـته ليذهـبا، وأنهضت ميخا الذي بدا لي مستقراً في بيتي لا يود الـذهاب، بـصعوبة، كنت واثقاً أنه يريد أن ينفرد بـي، يحدثني عن مشاعر تضج بداخله في تلك اللحظة، لكنني كنت متعجلاً، ولا بد أن عروسـي قـد تعـبت وتوترت وهي محبوسة في تلك الخزانة المظلمة. أغلقـت الباب خلف ميخا، وعدت إلى عروسي بالفعل، أخرجتها من مخبـئها وهـي تترنح، مسحت عنها العرق، ورتبت فوضى هندامها، عطـرتها بالكولونـيا، وأعدتها إلى طاولة الاحتفال التي أزلت اتساخها أيضاً. وكان قراراً صائباً ذلك الذي اتخذناه معاً في تلك اللحظة، أن نكمـل عقد قراننا حتى لوكانت الزينة ممزقة، لو كان قالب الحلوى قـد فـسد، والشموع الملونة اختفت حين دستها سومية أحمدو في حقيبتها قبل أن تنصرف. قلت مبروك لنا يا كاتيا، وقالت مبروك لنا يـا علـي، ثم أخذتها، قبلتها بشغف، ودخلنا معاً إلى حجرة النوم المبخـرة بـبخور الصندل الذي لا يشبه بخور العواني بأي حال من الأحـوال. كـان شهر عسلي قد اندلع بالفعل حين ضج الصباح بضوئه وأصواته، وكنت غارقاً في الأحضان والقبل، فوقي لا شيء سـوى عـري جسدي، وتحتي تلك الصورة التي حورها الإغريقي طاووس، وجعل فيها عروسي متأوهة في ساعة الرعشة الكبيرة. مرة ومـرتين وثلاثا، وما زال جسدي صامداً يستقبل المتعة ويضخها في نفس الوقت.

كان الوقت عصراً حين شعرت بالجوع وشعرت عروسي أيضاً، وكان البيت خالياً حتى من حبة طماطم، أو رغيف خبز إثر غزوة ميخا الكـبيرة. استأذنت من عروسي اليانعة. ارتديت ثيابـي على عجل،

وفتحت هاتفي الذي ظل مغلقاً لثلاثة أيام بطلب من شيخ العواني الذي قال إن سيده شمهروس، ينـــزعج من نغمات الهواتف، وكاد في إحدى ثورات الغضب أن يحطم محطة لتقوية الإرسال. عثرت على رسالة من أخـــتي عديلة، تسألني عما تم بخصوص أرملتها ذات الخمسة وخمسين عاماً، التي أرادت تزويجي بها. ابتسمت. عثرت على رسالة أخرى من شـــاكر تعيس يخبرني أن عرسه الذي كان من المقرر أن يقام غداً، قد تأجـــل إلى الأســـبوع المقبل بناء على نصيحة من حليمة المرضعة التي قرأت كفه وكف سلافة اليوم، وشخرت شخيراً غريباً. رسالة ثالثة من أيمن داؤود الحضاري، يخبرني أن موقع عبادي دوت كوم الذي طلبت مـــنه أن يدخلـــه ويرى ما به، قد تم غزوه بالفيروسات، ولا توجد فيه زرافـــة تصنع القهوة والشاي، ولكن بعض أغنيات الدودو المكسيكية وصـــور مرعبة لعبدة الشيطان، وشريط فيديو لراقصة استربتيز إيطالية، معلقـــة علـــى عامود، لكن الرسالة الرابعة هي التي خلخلت عظامي، وحولت زغاريد الفرحة في داخلي إلى نواح. كانت من موسى خاطر الأمني، وتقول بصريح العبارة.

- زواج مـــبارك يا جرجار.. بالرفاء والبنين... منك المال ومنها العيال.

ردت على رسالته في هلع.. وأنا غير واثق من شيء..

- لا تخبر أحداً أرجوك. لا أريد إزعاجاً في شهر العسل.

وكان رده سريعا جدًّا، حتى قبل أن تصل إليه الرسالة:

- من صميم عملي ألا أخبر أحداً. لا تقلق يا عريس.

كـــنت خائفـــاً أن يضيع شهر عسلي الذي جاء بعد أن شخت وأقتـــرب من النهاية، وخائفاً أكثر أن أوصف بالجنون ولم أكن مجنوناً. لقد تزوجت كاتيا الملاك لأنني أحبها، وتزوجتني لأنها أحبتني أيضاً. ولو

عرف الحي بذلك الزواج الذي أردت الاحتفاظ به سرياً لفترة مؤقتة، ربما ضاع كل شيء.

أدرت هاتفـــي على رقم موسى، الذي لم أكن أعرفه في السابق لولا ظهوره الآن على شاشة هاتفي، أردت أن أحتلب من ذلك السفيه مـــزيداً من الاطمئنان ولم أكن واثقاً إنني سأجده. رن الهاتف.. رنة.. رنتين.. ثلاثاً، وسمعت على الطرف الآخر صوتاً لا يشبه صوت موسى يصرخ، اغلق هاتفك فوراً وغير موقعك، إن كنت مخطئاً، واتصل مرة أخـــرى إذا كنت ترغب في خدماتنا حقّاً. فأغلقت هاتفي وقد ازداد الهلـــع بداخلي. أنا مخطئ.. مخطئ بلا شك.. غيرت مكان وقفتي، وأنا مضطرب الأعصاب.

وقفت أمام عركي صاحب البقالة الذي لم يكن متحمساً للقائي كعادته في الأيام الأخيرة، وقد فسد الزيتون الإسباني الذي أحضره من أجل كاتيا واضطر إلى إطعامه للبهائم.. ركدت حفاظات أولويز على رفـــوفه بـــلا شراء، لأن نساء الحي لا يستخدمن حفاظات، وباع من العـــسل اليمني غالي الثمن، أوقية واحدة فقط، ولزبون عابر، ليس من أهل الحي... أخرج دفتره من تحت طاولة البيع، قبل أن أفتح فمي، مرر الحـــساب المقيد عليه أمام وجهي وهو يتنهد، وكان مبلغاً تافهاً دفعته على الفور ثم قلت:

- هل هذا كل شيء؟.
- نعم.. كل شيء.

قال ببرود من دون حتى أن ينظر في اتجاهي.

- إذن أعطني ستة أرطال من العسل اليمني، وعلبتين تونا العلالي، وسلطة مايونيز أمريكية، ودستة من البيض المستورد، وكيسين من حفاظات أولويز.

كـــان أبله وهو يسلمني ما طلبت، وأبله، وهو يستلم نقوده مني عداً ونقداً، وأبله، وهو يشيعني بنظراته حتى اختفيت.

-11-

خمسة أيام مضت على شهر عسلي الذي حرصت على جعله شهر عسل حقيقياً، بلا ظهور ملفت للنظر في الحي، بلا رد على كل مكالمة ترد إلى هاتفي الذي كان في معظم أوقاته مغلقاً، ولا فتح للباب حتى لو تكسر من شدة الخبط. ونوعاً من الرغبة في تغيير المزاج كما يحدث في شهور العسل والحياة الزوجية عموماً، ذهبنا أنا وكاتيا الملاك مرة إلى تلك الغرفة المستأجرة في بيت حليمة المرضعة، أخبرت الإثيوبية التي رأتني أفتح الباب، أنني جئت لأضع اللمسات الأخيرة على الحجرة، قبل أن تأتي الضيفة، بناء على تكليف رسمي من المحافظة، وأنني قد أغفو قليلاً بها لأن بيتي محاط بعمال يحفرون الأرض ويحدثون ضجة، كنت أكذب حتى لا ينتشر الخبر قبل أوانه، فانصرفت وفي وجهها علامات استفهام كثيرة من كيس ضخم كنت أحمله وفي داخله عروسي اليانعة بشتى أوضاعها، حتى وهي عرقانة، أو تستحم. قضينا النهار بطوله نحتلب المتعة ونضخها، جسدانا يلتحمان ويتفككان، يتفككان ويلتحمان، وأنفاسنا تفور وتبرد، وخرجنا في المساء من أجل الذهاب لعرس شاكر تعيس وسلافة الذي كان مقرراً له ذلك اليوم، ولا بد من حضوره حتى لعريس في شهر العسل مثلي، أو مريض بذبحة صدرية في العناية المكثفة. إنها تقاليد غائب التي لا يمكن تغييرها أبداً. فتحت باب الغرفة لأجد الخادمة زهورات ملتصقة به، وكادت أن تسقط على وجهها حين فتحت.. لم تكن تلك التعيسة ذات الشياطين التي تهب في

وجهـــي كلما رأتني، ولكن زهورات أخرى.. أقرب إلى أنثى عجوز دخلت فجأة معهداً للتأهيل. كان شعرها مصبوغاً بإتقان هذه المرة، لم يـــنس حتى شعرة واحدة، على فمها روج رخيص من منتوجات رامز الـــشعبية، وقـــد عدّلت حاجبيها حتى صارا خيطين رفيعين. وكانت ترتدي قميصاً أحمر ضيقاً، في طرفه دانتيلا زرقاء. استعادت توازنها على الفـــور ودارت أمامي عدة دورات في شبه رقصة، وكادت أن تسقط حقـــيقة لأن صندلها كان عالي الكعب، ولم أرها ترتدي صندلاً عالي الكعـــب من قبل.. استنتجت على الفور أنها مشحونة بشيطان شبقي اســـتخرجته من استراقها السمع لطقوس شهر عسلي، وأنها قد تنفجر في عناقـــي بين لحظة وأخرى.. فيفسد الطعم الذي لا أريده أن يفسد. أخـــرجت صوتي من مكمنه عالياً لأصيح.. يا حليمة.. يا مرضعة.. يا حليمة، ورأيت على الفور ما أذهلني. زال روج الشفتين بسرعة غريبة كأنه لم يكن أصلاً موجوداً، انحلت عقد في الثوب كانت تجعله مختصراً وضيقاً، ليعود واسعاً وطويلاً، وأسرع غطاء متسخ ليسقط على الشعر ويغطيه.

بلهاء.. قلت

مجنون وتعاشر الجنيات.. قالت.

ارتحـــت لتفسيرها جدّاً، وأيقنت أنها ستنقله للمرضعة على الفور، لكن لا يهم... مجنون ويعاشر الجنيات أفضل كثيراً من مجنون عقد قرانه على لا أحد.

كـــان عرس شاكر وسلافة قد أقيم في خيمة استأجرت من آل كزام الـــذين اشتهروا بإقامة طقوس الأفراح والأحزان على امتداد الوطن كله. خـــيمة قديمـــة ومستهلكة، وضيقة بعض الشيء، لكنها مناسبة لحي مثل غائب معظم مناسباته تقام في العراء. دخلت إلى لجة العرس وحدي بعد أن

تـــركت كاتيا بالبيت. شعرت بأنها مصابة بصداع من جراء إرهاق السهر في أحـــضاني ومـــن ثم تركتها لتستريح حتى أؤدي واجب التهنئة وأعود. عثـــرت على ميخا متأنقاً وسلساً يبتسم للجميع، ويلوّح بعقود الهجرة التي ســـتأتيه حتى بيته قريباً.. كان قد قدم التماساً لدى الإدارة الشرعية بمنحه مهلـــة إضافية في عملية الختان، لأن الجو حار هذه الأيام، وهو مريض بداء السكر، ويخشى من عدم التئام جروحه، وقد أراد بتلك المناورة الماكرة أن يكـــسب زمـــناً إضافياً، حتى يفر بجلده من البلاد حاملاً لحمته وآماله.. وبالفعل قبل التماسه وكان شيئاً نادراً لا أدري كيف حدث. عثرت على أيمن الحضاري متأنقاً يبتسم للمراهقات، وجاهزاً لإيراد خبر الزواج السعيد في موقـــع الإخـــوة أون لاين، وجلب تعليقات المهنئين، ودخل منعم شمعة بغتة وهويابس الوجه.. ولا بد قد عاد اليوم من سفره الذي لا يستريح منه حـــتى يعـــاوده، في فمه سيجارة مشتعلة، وفي يده سيجارة أخرى تسعى للاشـــتعال.. جلس قربـــي في صمت من دون أن يصافحني، ولمحت دمعة كبيرة تشق طريقها على خده.

- ما لك يا شمعة؟ هل حدث شيء؟.. هل خسرت في التجارة؟
سألته.. وكنت على يقين أن هذا ما حدث.

- تـــرانيم مريـــضة يـــا جرجار.. وجدوا عندها سرطان الغدد اللـــيمفاوية، وقد انتشر في كل جسدها تقريباً.. ماذا أفعل؟.. قل لي ماذا أفعل؟.. عرضت على أهلها أن أعالجها على نفقتي في الخـــارج ولم يقبلوا، ذهبت للطبيب أطلب نصيحته، فقال لي: لا يـــوجد أمـــل. راسلت شيخ الهاشمي، طبيب الأعشاب الشهير وأرسل لي خلطة لم تفدها.

لم أكـــن أعـــرف بمـــاذا أرد عليه، ولم أكن في الحقيقة راغباً في تفاصيل مأساة أيا كان نوعها، وأنا في شهر العسل.. نهضت من قربه،

وأفكـــاري تدور حول عروسي التي تركتها وحيدة وفي رأسها صداع، ومن بعيد رأيته ينهض متثاقلاً، ومحني الظهر، ويغادر خيمة الحفل. كان موســى الأمني الآن خلفي تماماً، يده على كتفي، وصوته يأتيني كحد سكين:

– خفف قليلاً من الشقاوة يا عريس.. لست شاباً يا عم..

وكـــان محقّـــاً في قـــوله، لأنني بدأت أشعر لأول مرة في حياتي، بالـــدوار حـــين أقف فجأة، بدأت ركبتاي تؤلمانني بشدة، وبان انحناء الظهر الذي كنت أخفيه فجأة. كانوا يتحدثون عن مبدع النبوي الذي ســافر الـــيوم في الصباح بعد أن استوعب مهاجراً إلى لوكسمبورج، تاركـــاً أخاه سوكارنو الذي بكى بحرقة وهو يشاهده يغادر وعاد إلى البيت ليغلق نفسه في غرفة ويواصل البكاء.. يتحدثون عن الغلاء الذي طحـــن طبقة وزاد من ثراء طبقة في المجتمع، وذلك القرار الجائر في حق الـــبلاد الذي أصدرته محكمة استعمارية وما تبعه من تظاهرات ملأت العاصمة كلّها. سمعنا أغنيات الزفة تردد بحناجر أعضاء فرقة "يا فرحتي" المـــصرية، التي دخلت المدينة مؤخراً ضمن أفواج المستثمرين المصريين حـــين فـــتحت الحكومة أبواب البلاد للأجانب، وكان استثمار الفرقة ناجحـــاً لأن كل الأعراس في المدينة كانت تستدعيها ولا تكتمل زفة العـــروس إذا لم يزفوها. ودخل شاكر وعروسه سلافة التي حولتها زينة العـــرس إلى ملكة أسطورية، لكنها لم تكن تشبه كاتيا.. لم تكن تشبه عروسي أبداً.. سمعت تأوهات إعجاب، وعبارات حسد واضح، وقال أحـــدهم بصوت صريح، إن شاكر تعيس الذي لم يذق ماء زمزم حتى الآن، لا يـــستحق هذه الظبية. جلس العروسان على مقعدين مزينين في مواجهة المدعوين، ونهضنا، هجمنا عليهما لتقديم التهنئة، وقالت سلافة حين أمسكت يدها، وقلت: بالرفاء والبنين:

- كـنا نتمنى أن تكون كاتيا الفرنسية.. هي ضيفة الشرف في الحفل.. لكن خسارة أنها لم تأت.

لم تكـن تدري، ولا أحد بخلاف موسى خاطر، يدري أن كاتيا المـلاك موجودة بالفعل في حي غائب، وفي بيتي بالتحديد، ونعيش معا شهر عسل أرفع مكانة من شهر العسل الذي ستقضيه مع شاكر تعيس. تناولـنا عشاء الكوكتيل سريعاً، وصعد المغني فرفور إلى مسرح الحفل المعد من الخشب المطلي بلون وردي، أخذ يغني بعوده وصوته القديمين والجمـيع يرددون وراءه ويرقصون.. وأعلن مقدم الحفل إن فقرة قراءة الكـف الـتي كانت من ضمن الفقرات في أعراس غائب كلّها، ومن المفترض أن تقدمها حليمة المرضعة، قد ألغيت بسبب انشغال القارئة في استقبال ضيوف أتوا من بعيد. عاد منعم شمعة مرة أخرى، كان يرتدي قميـصاً أسود، وبنطلوناً من الجنيز، يضع سيجارتين مشتعلتين في فمه، وفي يـده حقيبة. اتجه إلى العروسين مباشرة، وهو يمشي في تثاقل، مد يده مصافحاً وانصرف. كان ذاهباً إلى مأساته بلا شك، إلى حبه الذي يحتضر. كان أغرب ما في الأمر أن ميخا لم يقترب مني أبداً، استمر في نفس بشاشته، وآماله، يوزعها على الجميع لكن لم يقل لي شيئاً و لم أقل لـه، وتمنـيت للمـرة المئة أن يهاجر ضد مصيره البائس، الذي أعلنته المرضعة حليمة حين صرخت.

كانـت مفاجأة حقيقية لي حين التفت إلى مدخل الخيمة، لأرى رجلـين يـدفعان مقعداً متحركاً، يجلس عليه الرحالة حاكم عذابو، مفاجأة بلا شك، لم أضعها أبداً في حسابـي، ولن اسمح لها بإفساد ما تبقـى من شهر العسل، خاصة إنني استقلت من حزب "وطنك الكبير" وقـبلت استقالتي. نهضت بسرعة لأفر إلى كوخ العسل، أغلقه بإحكام حين سمعت صوتاً باطشاً يلسعني في ظهري:

- اجلس مكانك واستمتع بالتوافه يا جرجار.. مثلك لم يخلق للمجد أبداً.

وكان صوت الرحالة، الذي طالما كنت خادمه المطيع في أي زيارة يقوم بها للمدينة من قبل.

وقبل أن أستوعب أو أرد، سمعته يقول مرة أخرى:

- لست ضيفاً عليك هذه المرة، ولكن على أصدقاء يعرفون كيف يقيّمون رجلاً سيرأس الحكومة ذات يوم.

أخيراً انتهى الحفل. أطفأ فرفور صوته، نهض العروسان ليذهبا إلى فندق في وسط المدينة، حيث يكملان بهجتهما، ونهضت مهرولاً إلى البيت لألحق بكاتيا، وأنا أتمنى أن يكون قد زال صداعها وإرهاقها، وتزينت لعناقي.

-12-

كـــنا نقترب من نهاية شهر العسل، حين اتفقنا أنا وكاتيا في صوت واحد، أن نعلن زواجنا رسمياً، نوثقه بكل المواثيق، ونظهر في الحـــي والمديـــنة كلّها، جنباً إلى جنب كما يظهر الأزواج. كنت معتـــزماً تعميق الصلة ببعض الأسر في الحي، بعد أن انتهت عزوبيتي الطويلة، وفتح بيتنا أمام الضيوف كأي بيت ينفتح. وقد رأت كاتيا أن تستقر لفترة في حي غائب قبل أن نحزم أمتعتنا، ونشد الرحال إلى باريس. لن يكون بعد اليوم سفر إلى المجهول، ولن تكون ثمة دعوات تلـبى عـــند حكماء إفريقيا أو غيرهم، وستتنازل عن لقبـــي الملاك والجوهـــرة البيـــضاء اللذين منحوهما لها، لتسعد بلقب من عندي شخـــصياً، وهو كاتيا العسل. علي وكاتيا إلى الأبد.. كتبت تلك العبارة على كل ركن في البيت، وغداً أكتبها في الشوارع والحدائق وحافلات النقل العام، وكل شبر تطأه قدمانا أنا وكاتيا معاً. وكان أجمـــل ما فيها أنها لم تسأل أبداً عن ماضيّ الطويل في مغازلة النساء ووعـــدهن بالزواج، كانت تعتقد بأن الرجل يقاس بحاضره، وليس ماضـــيه. كلنا نملك ماضياً قد يكون بذيئاً، لكن الحاضر ملكنا الآن وســـنجعله مـــشرقاً. لقد قال الرحالة عذابو، إنني لم أخلق للمجد، وليـــته يعلم أن المجد ليس في وهم رئاسة حكومة لن يرأسها، ولكن في امـــتلاك قلـــب كبير يحبك، وصدر واسع يضمك، وخصر أشد نعومة من الحرير، يتمايل بين ساعديك.

كانت قد وقعت أحداث عدة في تلك الأثناء، فقد عادت الجميلة سلافة إلى الحي بعد سبعة أيام فقط من زواجها، وذهابها إلى رحلة شهر العسل. كانت مطفأة، وذابلة، وعلى وجهها آثار عض وأظافر. شاهدوها تهبط من عربة للأجرة أمام بيت جدتها، بلا حقيبة، ولا زوج. وأسرعت أستطلع الأمر حين أخبروني برسالة هاتفية، بعد أن استأذنت من عروسي. في بيت الجدة الضيق كان الزحام على أشده، نفس الزحام الذي غنى ورقص في العرس، والتهم عشاء الكوكتيل، وتابع العروسين، حتى اختفيا عن الحي في السيارة المزينة. كانت الجدة منكسة الرأس، تنقر بعصاها الأرض، ولا ترد التحية لأحد، وكانت سلافة، أشبه بتمثال من الشمع تعرض إلى لهب حار. ماذا حدث؟، ولا رد.. ماذا يا سلافة؟ ولا رد.. أين زوجك شاكر؟.. ولا رد.. أخبرينا يا جدة بخيتة.. ولا تخبر.. ساعتان أو أكثر، فار فيها فضول الحي كله، ولم يبرد. وانصرفت أخيراً وأنا موقن تماماً، بأن مأساة كبيرة ولعينة قد حدثت، وها هي المرأة الرابعة في حياة تعيس، تفر في بواكير شهر العسل.. كنت أتحسر على سلافة الجميلة، أتحسر على ذلك الوجه وأنا أطالع جروحه، وأتذكر كيف كان يلعب بخيالي وخيال كل من كان يشاهده في حي غائب.. وفي مساء نفس اليوم وأنا أتهيأ للولوج إلى الدفء بجانب عروسي العسل كما سميتها، سمعت طرق سلافة على الباب.. أعرف طرق أصابعها الرقيقة، وأميزه من بين ألف أصبع تطرق الباب، أجلت نشاطي المحموم، سترت عورتي بسرعة، وأسرعت.. كانت هي بالفعل، مطفأة بنفس انطفاء الصباح، وتضع عدداً من لزق الجروح على وجهها.. كانت تتلفت في حذر، وأدارت وجهها بعيداً عني حين انفتح الباب وبدا أنها أرادتني أن أخاطب فيها سلافة القديمة، لا التي تقف الآن بائسة ومشوهة:

- أرجـــوك يـــا جرجار.. أرجوك ساعدني.. لن أعود إليه.. لن أعيش معه أبداً.. سأنتحر قبل أن يلمسني مرة أخرى.

ثم بكت بحرقة، وكنت أسمع بكاءها لأول مرة.. فقد كان جمالها الأخاذ دائماً ما يمدها بالسعادة، ولم يسمح من قبل لدمعة أيا كانت أن تشوه ذلك الوجه.

- ولكن ماذا حدث؟.. ماذا حدث حقيقة؟
- تفاهات.. تفاهات لا أستطيع قولها..
- قوليها أرجوك..

كـــان الفـــضول بداخلي قد أطفأ رغبتي المحمومة في عناق كاتيا، وأكـــاد الآن أعرف ما حدث في شهر عسل الجميلة، لكنني أردت أن اسمعه..

- قولي يا سلافة.. قولي..
- كان يربطني إلى السرير، يعضني ويضربني..

ولم تكمل عبارتها، رأيتها تفر من أمامي.. كطيف، وكنت واقفاً أتابـــع ظلـــها يختفي بين الأزقة، وأنا عاجز حتى عن إيجاد كآبة مناسبة أرتديها.

مـــنعم شمعـــة، عاد في أحد الأيام، وقطعت أيضاً وقتاً غالياً من أوقـــات عـــسلي وذهبت إليه، لم تكن في داخلي رغبة أكيدة لسماع مأساته عن الحبيبة التي تحتضر، وتفاصيلها الجديدة التي لا بد عاد يحملها من سفره، لكنني رأيت ذلك واجباً ينبغي القيام به.. كان أول ما لفت نظـــري حـــين اقتربت من المحل، تلك اللافتة الجديدة التي تعلوه، وقد كتـــبت بلـــون ذهبـــي وزخرفت حوافها بالأخضر.. محل كريمان.. أصـــبت بالدهشة والاستغراب وأسرعت إلى داخل المحل راكضاً برغم وجع الركبتين. كان منعم شمعة مشرقا جدّاً.. يرتدي قميصاً أبيض بكم

قـــصير، وبنطلوناً رمادياً واسعاً، كان قد قص شعره بقصة شبابية، و لم تكن في فمه سيجارة.

- ما هذا يا شمعة.. لماذا غيرت اسم المحل؟

رد وابتسامة عريضة تملأ وجهه..

- كريمان صابر.. الرحلة رقم ستة ستة صفر.. الدوحة — بكين، ست عشرة ساعة بلا توقف.

- وترانيم؟ ماذا حدث لترانيم؟

لم ينطفـــئ إشـــراقه، أو يـــتقلص، و لم يبد مذنباً، أو تحت وخز الضمير.. وهو يفتح إلبوم الصور في هاتفه النوكيا، ليريني صورة جذابة التقطت على سلم طائرة لأحد الخطوط العربية، ولواحدة لم تكن جميلة فقط. لكنها آية مجسدة للحسن:

- لا أدري يـــا جـــرجار.. لا أدري حقيقة.. فأنا لم أذهب إلى الشام مرة أخرى قط.

أردت أن أســـأله أسئلة كثيرة و لم أفعل، أن أحدثه عن وسخ التجارة حين تستخدم في الحب و لم أحدثه.. حبيبة ميتة.. يعني صفقة خاســـرة.. تعوض وبسرعة رهيبة. تذكرت وجهه في عرس شاكر وســـلافة، وكـــيف كان صوته منهزماً، وظهره محنياً، وسيجارتان مـــشتعلتان تدخلان رئتيه، وزاد استغرابـــي من كل شيء.. كان يحدثني عن صفقة مبردات الماء التي تعمل بلا أية طاقة معروفة، والتي أتمها أخيراً.. عن العم كين ياو، الصيني صاحب أكبر مصنع لإنتاج حقـــن البلاســـتيك، حين دعاه لمشاركته في مصنعه و لم يقبل، وعن الراقـــصة لي هاي أو زغرودة الصين كما يسمونها، التي تناول معها عـــشاء مكـــوناً من الخضراوات المسلوقة، وكان سلساً بمذاق لحم الـــضأن. تركته وحديثه لم ينقطع، وعدت إلى نفسي سريعاً.. علي

جـــرجار، حبيب كاتيا الذي لن يتخلى عنها وعن حبها، تحت أي ظرف.. علي وكاتيا إلى الابد.

ميخا من ناحيته، انتظر بشارة شيخ العواني بلا كلل، ولدرجة أنه تـــرك بـــاب بيته مفتوحاً حتى لا يضطر أي قادم إلى طرقه، وحين أو شـــكت بـــشاشته أن تسقط عن وجهه، ويعود البكاء مرة أخرى إلى عينـــيه، ذهـــب إلى مقابلة الشيخ.. وكانت صدمته كبيرة حين أخبره العـــواني، أن خطأ ما قد حدث في ذلك اليوم في بيتي، حين غفا سيده شمهروس للحظة، وذهبت عقود الهجرة كلّها إلى رجل اسمه ميخا نجار، استغلها بسرعة غريبة، وهاجر إلى ست دول في وقت واحد. سأله عن تكرار التجربة مرة أخرى، لكن العواني قال إن تجاربه مرة واحدة، ولا تكرر. ذهب إلى الإدارة الشرعية طواعية، سلّمهم لحمته العجوز، حيث ذهـــبوا به إلى إحدى المستشفيات الفقيرة وجزوها هناك. سلّمهم بقية أمـــره، وأنه قد يموت فجأة من الجوع أو الانهيار العصبـــي، أو نقص علاجـــه لمرض السكر، لكنهم كانوا قد انتهوا.. لم تعد تابعاً لنا إلا في مـــوائد شـــهر رمضان المعدة للفقراء فقط.. قال أحدهم.. ابحث عن رزقك بما يرضي الله يا أخ مختار.. قال آخر، وكتب كلمة تم بحمد الله في آخـــر صـــفحة من ملفه. واسيته بما استطعت من مواساة، اقترحت علـــيه تقديم شكوى ضد شيخ العواني في كل المحاكم، وسآتي لأشهد معه، لكنه لم يقتنع، قال.. أخاف من سيده شمهروس.. أخاف، وابتدأ نـــوبة من نوبات بكائه القديم. وفي اليوم التالي شاهده عدد من الناس، يحمل حقيبة صغيرة سوداء اللون، على كتفه ويغادر الحي بعد أن علق علـــى باب بيته لافتة تقول "بلا عنوان"، وقال للذين سألوه: إلى أين يا ميخا ميخائيل؟

- إلى الموت.

لا أستطيع أن أصف شعوري حين علمت باختفاء ميخا المفاجئ، وفــشل كل المتطوعين الذين تبعثروا هنا وهناك، في العثور عليه، كان شعوراً غريباً، نصفه فرح لانعتاقي من رعايته والتفرغ لبيتي وعروسي، ونصفه بكاء على رجل حددت حليمة المرضعة مصيره منذ زمن، حين صرخت صرختها الرهيبة.

-13-

أول مكان ظهرنا فيه أنا وحبيبتي كاتيا علناً في الحي، كانت بقالة عركي، أخبرتني برغبتها في شراء بعض الحاجيات لها وللبيت، وأخذتها إلى هــناك. كنت أرتدي أناقتي الزرقاء مغسولة ونظيفة وأنتعل حذائي الــباتا بعــد أن لمعــته بالورنيش، وكانت هي بفستان أزرق فريد في التفــصيل، ويــبرز الكثير من فتنتها، وقد جعلت شعرها مرسلاً حتى لامــس كتفيها الناعمين. سرنا قليلاً في الشوارع وأنا ألاحظ نظرات الحــسد والدهــشة من كل صوب، وحين وقفنا أمام عركي، سألني بطــرف لــسانه: مــاذا تريد يا جرجار؟. تغاضيت عن عدم ترحيبه، وأشرت إلى زوجتي، قلت: ليس أنا ولكن هي تطلب زجاجة من زيت عباد الشمس، وستة أرطال سكر، وخمس علب تونا، وعلبة كريم نيفيا، ومــشطاً للشعر بعد أن ضاع مشطها الباريسي في فوضى شهر العسل، ولم تعثــر عليه. رأيت عركي يتلفت ببله، ويمد بصره من خلف طاولة دكانه إلى الطريق، ثم ليسألني..

أين هي يا رجل.. هل جننت؟..

- بل أنت المجنون.. تقف أمامك أجمل نساء الأرض، ولا تراها؟

صرخت في وجهه..

- والآن اذهب واحضر ما طلبته كاتيا..

كان يرتعد بشدة، يتلفت خلفه في هلع، وهو يصعد سلماً خشبياً في البقالة ليأتي بعلبة النيفيا التي لم تكن من ضمن السلع الرائجة في حي

غائب، يعود ببقية الأشياء ليقف أمامنا مرتعداً ما يزال، ولاحظت أنه لم يفتح دفتره على اسمي ليسجل المشتريات، كما كان يفعل دائماً.

- قيد الحساب على اسمي.. لماذا ترتجف؟

- لا ضرورة لذلك يا جرجار.. هذه هديتي لزوجتك.

ثم ضحك، وكانت ضحكة مرتبكة لأنها انقطعت عدة مرات قبل أن تكتمل وكنت مستغرباً من سلوك عركي، لم يهنئني حتى بالزواج بعد أن غدا رسمياً، ولم يمد يده ليصافح عروسي الجميلة، وأغفل تقليداً قديماً في حي غائب، حين لم يدعنا إلى بيته لتتعرف زوجتي إلى أسرته، وتمد جسور الصلة.. ولولا أنه أعفاني من نقود المشتريات، لقلت تافهاً وسخيفاً ويستحق الصفع. قلت

- ستشرفنا قريباً في البيت بمناسبة إعلان زواجنا أنا وكاتيا.. سنقيم حفلاً صغيراً ندعو إليه الأصدقاء.

قال..

- حاضر.. حاضر..

ورأيته يعبث بمفتاح ضخم من مفاتيح صيانة الدراجات، أخرجه من أحد أكياس البلاستيك، وهويتحدث إلي. أخذنا كيس الحاجيات وابتعدنا، ولمحته وأنا ألتفت خلفي، يغلق دكانه بسرعة ويهرول مبتعداً، وقد سقطت عمامته على الأرض ولم يرفعها.. ما له عركي اليوم؟ قلت في نفسي، لكنني لم أهتم، فلا بد أن ظهوري المفاجيء برفقة تلك الزوجة الأوروبية الفاتنة قد أربكه، وغالباً ما سيربك أهل غائب كلهم حين يروننا معاً.. لن أهتم. التفت إلى عروسي، سألتها إن كانت ترغب في الذهاب إلى وسط المدينة بعد أن ظللنا محبوسين شهرا كاملا؟، فرحبت بالفكرة. كانت قد مضت أشهر طويلة منذ خرجت من باريس إلى إفريقيا، ثم إلى أحضاني بعد ذلك، وتود أن تقرأ بريدها

الإليكتـــروني، وترسل بعض الرسائل لأهلها ومعارفها، لتطمئن عليهم، وأيـــضاً لتخـــبرهم بزواجها من رجل جذاب التقته في منطقة بعيدة، وبحركة سريعة لم يلاحظها المارة، مدت يدها إلى خدي، قرصته بنعومة وهي تقول:

- جذاب وهمجي في نفس الوقت.. ما أسعدني يا علي.

وما أسعدني يا كاتيا..

قلتها وأنا أمد يدي، لأقرص خدها أيضاً.

عثرنا على سيارة للأجرة بسهولة، في حي يصعب فيه الحصول على سيارة للأجرة، ولعله حظ كاتيا العسل، الذي كنت موقناً بأنه أكبر حظ في الكرة الأرضية، فتحت باب العربة وأركبتها في الخلف، وركـــبت بجانـــب السائق حتى أراقب عينيه حين تحاولان النيل من جمالها، كنت أصف لها معالم الطريق والعربة تمشي.. هذا خزان المياه الذي نشرب منه منذ استقلال البلاد.. هذا نادي الخيول الذي أسسه الإنجليز حين استعمرونا، وكان عامراً بالخيول والخيالة، والآن تحول إلى مـــصلحة الضرائب، تلك المرأة البيضاء التي تجلس على الأرض هـــناك، اسمها حمدة، وهي أشهر متسولة في المدينة ويقال إن لديها ثروة عظيمة تدفنها تحت الأرض اكتسبتها من جراء التسول لنصف قرن، هذا الشرطي الذي يوقف السيارات بلا سبب، اسمه عوض الله كـــوَّة ويلقبونه بعوض المنشار، انظري كيف يدس الرشوة في جيبه. وذاك البيت الأخضر على ناصية الشارع، حدثت فيه مأساة عظيمة، حـــيث قـــتل مالكـــه قـــبطان إحـــدى السفن، جميع أفراد أسرته بالرصـــاص.. وانتحر. كانت تبتسم أو تغتم، أو تهز رأسها هزات متتابعة، بحسب ما أصفه لها.

فجأة قاطعني السائق، ولونه شاحب بعض الشيء..

- من تكلم يا أخ؟
- زوجتي.. زوجتي الفرنسية.

وأشرت إلى المقعد الخلفي.

وبحـــركة لا إرادية، التفت بوجهه إلى المقعد الخلفي، ثم ارتد مرة أخرى، ولاحظت أن العربة قد بدأت تتعرج في سيرها، مرة يميناً، ومرة يساراً، وتكاد تصطدم بكثير من العربات الأخرى على الخط المعاكس، سكران بلا شك.. قلت في سري، ولن يكون ذلك جديداً على سائق للأجرة. وكلهم يشربون العرق، والبوظة، وكل مصائب الدنيا. رفعت صوتي لأوبخه:

- كـــيف تقود عربتك وأنت سكران هكذا؟.. ألا تخاف على تلك الأرواح التي تحملها؟، ثم هذه المرأة الضيفة، ماذا ستقول عنا حين ترجع إلى بلادها؟

كـــنت أشـــير إلى المقعد الخلفي، وأنا أصرخ، التفت السائق مرة أخـــرى، وارتد، ليزيد في رعونته، وأفلتنا من شاحنة محملة بالأسمنت، جاءت من الطريق المقابل، بمعجزة.

أخيراً وصلنا إلى السوق، وتوقف السائق أمام كريزي كافيه كما طلبت منه، أخرجت محفظتي لأدفع، لكنه رفض بشدة:

- علـــى حسابـــي من أجل الضيفة يا أخ.. لا تغضب مني.. أنا مدمن على السرعة منذ تعلمت القيادة، ولا أستطيع التخلص من ذلك الإدمان.

رائـــع جـــدّاً.. حـــظ كاتيا العسل مرة أخرى بلا شك، وسائق ســـكران يتـــنازل عن أجره، والمسافة بين حي غائب والسوق، ليست ســـهلة ليتـــنازل فيها أحد عن أجر. لنر الآن كيف سيكرمها عبد الله جنّي، حين تستخدم شبكته العنكبوتية.

كان كريزي كافيه شبه خال في تلك الساعة من النهار، وقد بدت معظم كومبيوتراته صامتة، تخلد للراحة بعد استخدام طويل، لم يكن أيمن داؤود الحضاري موجوداً، لكن جنّي كان في غرفته الزجاجية، يدخن سيجارة بمبسم ذهبي، ويلمع حذاءه بالورنيش. أجلست كاتيا على مقعد متماسك أمام أحد الكومبيوترات، وذهبت إلى جنّي، الذي ترك حذاءه نصف لامع، ونهض ليصافحني:

- مرحباً يا جرجار.. هل صحيح أنك استقلت من الحزب، وقاطعت الرحالة حاكم عذابو؟
- نعم.. وتزوجت أيضاً.
- تزوجت؟.. أنت تزوجت؟

كان يضحك في هستيريا، وأنا في قمة الصرامة، لم أشاركه ضحكه، ولا بد أن كل الذين عرفوا غزواتي التافهة على مدى الخمسين سنة الماضية، لن يصدقوا مثله.

- من يا ترى سعيدة الحظ هذه؟ لا تقل لي سريرة بائعة الشاي أمام مبنى المحافظة أو أمونة تمتم بائعة الخضار التي اشتكتك للقاضي بتهمة إيذاء المشاعر؟

أحسست بالقرف من تخمينه الذي كان في الواقع تخميناً رديئاً، ولا يناسب قدري ومكانتي، بعد أن تحضرت، وأصبحت رائعاً وأنيقاً بشكل لا يوصف.

- تزوجت من النجمة الفرنسية كاتيا كادويلي.

لم يعن له الاسم الذي نطقته شيئاً، ولا بد أن أبحاث أيمن الحضاري كانت تجري بعيداً عن رقابته، وهو لم يكن في الحقيقة رقيباً، ولكن صاحب محل مفتوح، يجلب بعض الرزق، ويعربد فيه من يشاء.

عـــاد يضحك بهستيريا مرة أخرى، وأمسكته من يده التي كانت كعود من الحطب:

- تعـــال إلى الصالة لأعرفك عليها، ولتساعدها في فتح بريدها الإليكتروني.

أخذتـــه إلى حيث كانت تجلس عروسي أمام الجهاز المغلق تنتظر، قلت له: كاتيا كادويلي، زوجتي النجمة.. قلت لها.. هذا عبد الله جنّي صـــاحب الكافيه والعضوالسابق بحزب البعث الاشتراكي. مدت يدها لتـــصافحه، ولم يمـــد يده التي كانت ترتعش، وقلت من المؤكد أنه من صـــنف لا يحب مصافحة النساء. طلبت منه أن يفتح لنا الإنترنت عند ياهو، لأن بريد كاتيا في ذلك الموقع الكبير. فتح الجهاز والإنترنت، بلا تـــردد.. واســـتأذن في الانصراف ليكمل تلميع حذائه. كانت كاتيا تتصفح بريدها في تأن، تقرأ الرسائل، وتكتبها، تضحك تارة، وترتسم على وجهها علامات الدهشة تارة أخرى، وكنت أشاهد عبد الله جنّي في غـــرفته الزجاجية، يبحلق بعينيه ناحيتنا مستغرقا، وكان حذاؤه على الطاولة بنصف لمعة ما يزال.

كان الوقت ظهراً، وكنا جائعين، التهمنا سندويشين سريعين من كـــبد الـــدجاج في أحد الأكشاك المنتشرة في السوق، وسط نظرات صـــاحب الكشك التي ما تركت في جسدينا شبراً إلا نهشته.. وكانت كاتـــيا تـــريد موسيقى هادئة، لتهدئ بها أعصابها حين تتوتر.. ومن ثم عـــرجنا على الدسوقي صاحب كشك الأغاني المسروقة، وكانت ثريا الضاحكة هناك وقد عادت إلى ضحكها المثير حالما لمحتني..

- علي يا جرجار.. طال غيابك يا شقي؟ أين كنت؟.

- في شهر العسل.

قلت وأشرت إلى زوجتي..

- هذه زوجتي كاتيا.. قبليها.. وباركي لها.

خرجت من الكشك مسرعة لترى تلك الزوجة ذات الاسم غير المطـــروق محلياً، مدفوعة بفضول النساء، لكنها لم تقبلها، أو تبارك لها، سمعتها تشتمني في تتابع، وهي تضحك. وجاء الدسوقي بعد أن أوقف ســـرقته لأحد الأشرطة، يستعلم الأمر.. أخبرته ثريا بما ظنته مقلباً مني، ولم يكـــن كذلك في الحقيقة، ولكن غيرة نسائية منها، لكنه سخر بمد لسانه، ولم يلق حتى بنظرة فضولية على زوجتي. قال: خذ كل أشرطة كاتيا البطة التي لدينا واذهب، ليس لديها سوق هنا، ولا أحد يسمعها غيرك.

قلت.. موسيقى فرنسية هادئة من فضلك.

رمى لي بشريطين مسروقين، وعاد إلى عمله.

- 14-

قلــت لحلــيمة المرضعة وأنا أقدم إليها كاتيا كادويلي، وأخرج مفتاح غرفتها المستأجرة لأضعه على الطاولة أمامها:

- لم نعــد بحاجة للغرفة يا مرضعة، لقد تزوجنا أنا وكاتيا منذ فترة، ونقيم الآن في بيتي. تعالي وزورينا، إن سنحت لك فرصة.

لم يبد على المرضعة أنها فوجئت أو اهتزت، بعكس خادمتها التي تغــير لــونها فجــأة، وسقط غطاء الرأس عن شعرها العجوز، وهي تصرخ.. معه جنية يا مرضعة.. جنية ستؤذينا.

زجرتها حليمة بصوتها الباتر، وبتهديدها الدائم، أن تعض ثديها إذا لم تسكت، ومدت يدها لتأخذ المفتاح، وتصافح عروسي، بل أكثر من ذلــك، تنازلت عن نفورها القديم من قراءة كفوف النصارى، وقرأت كفهــا، لا باعتبارها نصرانية، ولكن ضيفة عليها وعلى الحي كله.. ثم تــنأو لت كفي، مسحتها بماء له رائحة ليمون فاسد، وقرأته في تأن، لتبتــسم في الــنهاية وتبارك زواجنا، وتقول في صوت هامس: لديكم ضــيف في الطريق يا حلوين، إنه يتكون الآن.. حافظي على نفسك يا شابة.. لا تحملي أشياء ثقيلة، لا تدخلي الحمام، إلا إذا وضعت رجلك الــيمنى أولا.. ودعي هذا القرد يقوم بتنظيف البيت، والطبخ، وغسل الصحون، حتى تضعي حملك.

كان خبراً سعيداً بلا شك، بل أسعد خبر يمكن أن أتصوره، وأنا الذي ظننت بأنني سأفارق هذه الدنيا من دون ذكرى أو أثر. وللحظة

أخـــذت أفكر في حياتي التافهة القديمة كلّها.. فاطمة.. جواهر.. ست النـــساء.. زهورات.. سريرة.. ميمونة، بائعات شاي الفقر، وخادمات البـــيوت.. الـــنازحات من إثيوبيا وتشاد وضراوة الحروب الأهلية هنا وهناك، لا يملكن ماضياً ليفخرن به، ولا مستقبلاً يرتقي بهن.. حقّاً كل شيء بأوانه، وما كانت تلك الحياة البائسة التي كنت أحياها، إلا تمهيداً لحـــياتي المنعـــشة الجديدة.. عانقت كاتيا وعانقتني، وصحت.. علي وكاتيا والصغير القادم إلى الأبد.

كـــان عند المرضعة غرباء يملأون البيت كله، وبينهم رجل أشيب منـــتفخ العنق، يمص عظماً من عظام الدجاج، وهو مستند إلى وسادة، واستنتجت أنه العمدة صاحب الحلال، ونساؤه وعياله، وقد جاءوا من الجزيـــرة الخضراء بعد أن تحسن وضعهم، ولا أنسى أن المرضعة كانت ســـخية جـــدّاً حين استقبلتنا في غرفة نومها بعيداً عن أعينهم، وحين رفضت أجرها في قراءة الكف، إكراماً لزوجتي الضيفة، وحين فتحت محفظتها القديمة لدهشتي الشديدة، وأعادت إلي مبالغ الإيجار التي كنت قـــد دفعتها لها من قبل كاملة بلا نقص. حظ كاتيا الكبير.. ويا لحظ كاتـــيا الـــذي سيجعلني متخم الجيب إذا استمر متدفقاً بهذا الشكل. خـــرجنا من عند المرضعة ليفاجئنا الطريق بما لم نكن نتوقعه، فقد عثرنا علـــى عـــدد كـــبير مـــن ســـكان الحـــي، بيـــنهم أيمن الحضاري، وســـوكارنوالنبوي وسلافة الجميلة بعد أن التأمت جروحها واكتست شـــيئا مـــن غرورها القديم، وحتى الأمني موسى خاطر الذي كان بلا دفتر ولا جهاز لا سلكي.. كانوا يحملون هدايا رمزية اشتروها من محل كريمان الذي كان اسمه ترانيم في السابق، وقالباً كبيراً من تورتة القرع، والتي تصنع محلياً في الحي بأيدي نساء خبيرات، قدموه لنا بمناسبة إعلان زواجـــنا، وكـــان منقوشاً عليه بخط جميل، إلى أحلى عروسين.. علي

وكاتيا. حملته بيدي تاركاً عروسي الحامل، تضج في وسطهم، تخبرهم أنها تركت دراستها العالمية التي أتت من أجلها تذهب إلى الجحيم، وإنها غارقة في السعادة والسرور، لارتباطها العميق بهم، بعد أن انصهرت في دمائهم بزواجها بواحد من أهل الحي أنساها تجربتها السابقة في مطلع شبابها. وهنا كانت كلمة مكتوبة على ورق مسطر، تقدم عركي صاحب البقالة ليقرأها بصوت لا يشبه صوت قراءته للديون.. في البداية اعتذر عن سلوكه ذلك الصباح، حين فاجأته برفقة عروسي الأوروبية، التي لم يكن يتوقعها، ثم وصف مشاعر الحي وارتياح أهله كلهم لذلك الزواج الميمون خاصة أنه طال واحداً من أشهر العزاب في التاريخ. وفي النهاية أعلن أنه خابر مندوبي جمعية القفص الذهبي الخيرية التي تدعم المتزوجين حديثاً، ووعدوا بإرسال شيك سيسلمه إلي حالما يصل. كانت في تلك الزفة وجوه لنساء من ضحايا حياتي الفاسدة القديمة، لكنها لم تكن غاضبة، ولا مستاءة، كانت منتشية كانتشاء الجميع. أوصلونا إلى بيتنا مرددين أغنية "الهوى يا هوى" التي كانت ضمن أغنيات فرقة "يا فرحتي" المصرية، وحفظها الجميع برغم صعوبة كلماتها، ولحنها، وذلك من أجلنا.. أنا وعروسي.. علي وكاتيا إلى الأبد.

لا أدري لماذا تذكرت ميخا في تلك اللحظة، ولماذا كدت أفقد نشوتي وأحزن، وقد مضت أيام طويلة منذ ترك الحي، ولا يدري أحد إن كان ما يزال في الدنيا أو تركها أيضاً. لم يكن ميخا يملك حظي بلا شك، ولا كانت للمسكين كاتيا أخرى تلون حياته، كتلك العروس اليانعة التي ترقد الآن بقربي، وأخاف أن ألمسها.. لا مللاً من لمسها، ولكن خوفاً على الصغير الذي أريده، وتريده هي، ويريده المستقبل، حين يحمل اسمي. قلت لكاتيا وأنا أمسح بيدي على بطنها:

- ما رأيك الآن؟
- كل شيء رائع..

ردت وهـــي تضع يدها على يدي، لنتحسس طفلنا القادم معاً. سنـــسميه جـــرجار لوكان ذكراً، وكاتيا الصغيرة لوكانت أنثى.. كنا نريد أن نمتد حتى بعد أن ينتهي العمر.

مـــا تـــلا ذلك اليوم، كان غريباً بحق، سلمني عركي شيكاً بمبلغ محتـــرم مـــن المال، أرسلوه باسمي من جمعية القفص الذهبـــي الخيرية، وكان دعماً لتسوقنا أنا وكاتيا ليس عند عركي، ولكن في تلك المحلات الكـــبيرة الـــتي انتشرت فجأة في وسط المدينة، وكانت غاصة بكل ما تـــشتهيه النفس.. ندخلها دافعين أمامنا عربة صغيرة من الحديد اللامع، هي عربة التسوق، ونخرج وقد حملنا أكياساً ثقيلة على اليدين، وكنت قد أقسمت ألا أمس نقود كاتيا أبداً.. ومنعتها هي أيضاً أن تمس تلك الـــنقود. إنـــه واحد من تقاليد غائب ولم أرد خرقه. فتحت عشرات الأســـر في الحـــي بـــيوتها لاستقبالنا كأسرة، وأهدت كثير من النساء المحليات زوجتي، بعضاً من عطورهن المحلية كعطر الخمرة، إذ يثقن تماماً أنهـــا أهم شيء في زاد الليل، لا يستطيع الرجال مقاومة سلطانها، ومن ثم لـــيال دافئة وممتلئة. كنت أشم تلك العطور على جسدها وأتوتر.. أخاف على طفلي من هياجي، وأنام، وقد حلمت أحلاماً تعيد الجسد إلى سكونه.. العابرون في الطريق يحيوننا.. مرحباً علي.. مرحباً كاتيا، راكـــبو الحـــافلات وباصات النقل، يصفرون.. مرحباً علي.. مرحباً كاتيا. وحين ولدت طفلة لعركي صاحب البقالة في تلك الأيام، سماها كاتـــيا على الفور، وجعل عروسي تحملها بين يديها وتقبلها، ولم تمض علـــى ولادتها لحظات قليلة. وكنا حين نـــزور كريزي كافيه من حين لآخـــر، حتى تفتح كاتيا بريدها، يترك عبد الله جنّي مشاغله، ويهرول

ناحيتنا.. يجلسها على أفضل جهاز عنده ويقوم طواعية بفتح موقع ياهو حـــتى تقـــوم بقراءة بريدها، وحين يصدف أن يكون أيمن الحضاري موجـــوداً ساعة قدومنا، نراه وقد غاص طواعية في مواقع كثيرة، وجاء يمدنا بآخر أخبار الأسهم والبورصات الأوروبية. وجاء مرة بخبر نشرته إحدى الصحف في أوروبا عن الممرضة النجمة كاتيا الملاك التي تخلت عـــن ألقابهـــا الإفريقية كلّها، وتزوجت برجل جذاب في بلاد أخرى، لقبها بكاتيا العسل، وهي سعيدة بالرجل واللقب على حد سواء.

-15-

الغيرة هي السبب.

هكذا كنت أردد ولا أمل الترديد، حتى وأنا نصف غائب عن الوعـــي في تلـــك الدهاليز السحيقة التي أخذت إليها، أو موصولاً بأسلاك الكهرباء التي تتبرز على ذاكرتي وتفسد كل تلك السنوات الـــتي قضيتها وأنا أتدرب، لأموت بذاكرة لا تنسى، حتى سكرات الموت حين تأتي.

الغيرة هي السبب.

كـــنت أسمع عن مرض الغيرة كثيراً، أسمعهم يقولون.. يا غيور.. ويا غيورة. أسمع عن نساء متن مهشمات بسبب غيرة الأزواج، ورجال تقطعـــوا إلى أشلاء، وبعثروا في سلال المهملات، لأن زوجاتهم شممن رائحـــة امـــرأة أخـــرى على أجسادهم. وحين كنت شاباً في مطلع الثلاثينـــيات، شـــاهدت شريطاً سينمائياً مصرياً اسمه "زوجي الغيور"، وضحكت كثيراً من بلاهة الزوج الذي كان يخرج ثياب زوجته كلّها مـــن الخـــزانة، كلما عاد إلى البيت من عمله، يشمها ثوباً ثوباً، يدخل الحمام، يشم إصبع المعجون وصابونة الحمام، وفرشاة الأسنان، ونقاط المياه التي تخرج من عطب المواسير، ويقف في وسط الصالة، يشم الهواء بعمـــق، قـــبل أن يلقي بالتحية على زوجته. وحين تمل هي من جنونه وتـــصرخ مطالـــبة بالطلاق، يشدها من رقبتها وهو يزمجر: لن أطلقك لتذهبـــي إليه..

كانت زوجتي في الشهر الثالث أو الرابع من حملها، لا أدري، حين أصبت بذلك المرض. كان بطنها ضامراً كأنه بطن عذراء، وقد أخبرتني بأن الباريسيات كلّهن هكذا، يحملن ويلدن، ولا بطن مكور على الإطلاق، كانت فتنتها قد زادت بشكل لا يمكن تصوره. وأجمل مئة مرة من ذلك اليوم الذي عرفتها فيه، والذي شهد عقد قراننا. والذي صحبتها خلاله في الحي، والمدينة كلّها، حين أعلنا الزواج رسمياً.

أول مرة شعرت فيها بأعراض مرض الغيرة، كانت في كريزي كافيه، وكانت لوحة المفاتيح في الكومبيوتر الذي تعمل عليه كاتيا، يابسة ولا تضخ الحروف بكفاءة، حين استدعيت عبد الله جنّي لاستطلاع الأمر. ترك درسه لعدد من المبتدئين، وأقبل مسرعاً، وليؤكد على كفاءة لوحته، أمسك بأصبع من أصابع زوجتي، ضغط به على اللوحة، وهويبلع ريقه، ويقول.. هكذا.. بقوة.. هكذا.. أمسك بأصبع ثان، وثالث حتى امتلك اليد الحريرية كلّها لعدة ثوان. أحسست تلك اللحظة بقلبي يلتهب، وطعم حامض يخترق حلقي، كويت جنّي بنظرة مؤلمة، وأمسكت بزوجتي، أنهضتها عنوة لآخذها إلى البيت، وبريدها مفتوح عند رسالة من أمها، لا بد ممتلئة بالود والمشاعر. كانت غاضبة بشدة وصامتة، ورفضت حتى السماح لي بتمرير يدي على بطنها لأتحسس الطفل، أو تناول حبوب الحديد وحامض الفوليك، التي وصفها لها الدكتور أحمد، ابن اللورد سيف، حين أخذتها مرة إلى عيادته.. ساعتها كان حرياً أن أعتذر، أن أبرر سلوكي، ولم يكن في الحقيقة أي تبرير. أعدتها مرة أخرى إلى كريزي كافيه، لتكمل رسالة أمها، ووجدت نفسي من دون وعي أرابط عند باب الغرفة

الزجاجية لجنّي الذي كان مرتعباً، يطرقع أصابعه ويدخن السجائر، بلا توقف.

المـــرة الثانية التي أكدت لي إصابتي الحتمية بالمرض، وجعلتني أستـــسلم، وأسمح له بالانتشار عميقاً في داخلي، كانت عند منعم شمعة في محله كريمان. كان منعم موجوداً في تلك الأيام، وجاء بيتي لتهنـــئتي عـــند سماعه بخبر إعلان الزواج. كنا بحاجة إلى لوحة زيتية نـــضعها في واجهـــة صـــالة البيت، كما أشارت كاتيا، وكان محل كـــريمان ممتلئاً بمثل تلك اللوحات التي يجلبها شمعة معه حين يجلب بضائع الصين المقلدة، ويبيعها في الحي باعتبارها بضائع أصلية، ولكن بـــرخص التـــراب. وجدناه وقد عاد إلى التدخين، سيجارة مشتعلة وسيجارة تسعى للاشتعال، ورأس سيجارة يبرز من العلبة في انتظار دوره. قال إن خطيبته الجديدة تنازلت عن رأيها السيىء في المدخنين، وسمحـــت له بالعودة إليه. سألناه عن لوحة فيها خيول بنية تتسكع بجوار نهر رقراق، بينما عدد من الطيور الملونة تمد مناقيرها إلى النهر، تشرب. أوقد سيجارته الجديدة بعد أن احترقت القديمة، ونادانا إلى مخزن داخلي، حيث توجد البضائع التي يسميها بضائع الطلب، ولا يعرضـــها على واجهة محله أبداً. كانت عشرات اللوحات موجودة، بعـــضها مغلف، وبعضها مكشوف وقد اتسخ بالغبار، انحنت كاتيا علـــى الأرض لتستكشف لوحة تشبه ما طلبته، وأراد شمعة الخروج لتلبـــية نـــداء في المحل، ورأيته يحتك بجسدها المنحني، وهو خارج، وكـــأنني لمحت بريقاً مجرماً يظهر فجأة في عينيه. لا أعرف بالتحديد ماذا حدث لي، لكني تشنجت كطائر ذبيح، أمسكت باللوحة المعنية ومـــزقتها، وركـــضت إلى شمعة، حيث كان يعرض فانوساً يصدر موســـيقى، وأضواء لامرأة برفقتها طفل. انتزعت الفانوس من يده

وألقيته على الأرض، شددته من قميصه، وصفعته على وجهه، وأنا أصرخ بانفعال:

- يـــا ســـافل.. لـــو فعلـــت ذلك مرة أخرى مع زوجتي.. سأقتلك.

كنا نبتعد أنا وكاتيا، وأسمع شمعة يردد بلا توقف..

- يـــا لطيف.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

أغلقـــت باب البيت علينا بالمزلاج الذي لم يستخدم منذ فترة طويلة، وصببت عليه الزيت، حتى يعمل. ذهبت إلى الحمام وتقيأت سائلاً أصفر، وعدت لأجد كاتيا تبكي، وأشاهد دموعها لأول مرة. كانـــت فاتنة بلا شك، فاتنة وهي تلقي بشعرها الأشقر إلى الخلف، وتـــرفع يـــدها الرقيقة لتمسح الدمع، لم يكن في نيتي الاعتذار هذه المرة، بل وأكثر من ذلك، وجدت ذاكرتي تتضخم، تستعيد مواقف كـــثيرة حدثت في الحي أو وسط المدينة، كان فيها تحرش واضح لم أنتـــبه إليه في ذلك الوقت، وأنتبه الآن فقط. بدأت أستعرض تلك المواقف موقفاً موقفاً، وأنا أتشظى بلهيب جامح حرق حتى أمعائي، وحاســـة الشم والتذوق. اكتشفت أن عركي صاحب البقالة، كان يتـــضاحك أمامها بلا مناسبة وبريق الاشتهاء ينط من عينيه، ودوّن مرة اسم كاتيا الملاك، على دفتره، متجاهلاً اسمي الذي يتعامل معه مـــنذ أن افتتح دكانه لأول مرة، ومؤكد أن تسميته لطفلته الوليدة باسمها لم يكن من أجل إكرامها ضيفة، ولكن واحدة يشتهيها ويود الاحتفاظ باسمها حاضراً في بيته. اكتشفت أن أيمن داؤود الحضاري، كـــان يطـــيل النظـــر إلى صدرها الناهد، في كل مرة نجده فيها في الكريـــزي كافيه، ولا بد أنه جاء إلى بيتي في غيابـــي، لينفرد بها،

لأنـــي شممـــت عطـــره الماكسي عالقاً بهواء البيت أكثر من مرة، ووجـــدت ورقة من أوراق الإنترنت، فيها أخبار تخصها، ولا أذكر أنهـــا استخرجتها في حضوري. اكتشفت أن سوكارنو، ابن النبوي المتبقـــي في الحـــي، بعد أن هاجر أخوه، ظهرت في وسط ثيابه بقع متـــسخة، لم تكن موجودة قبل ظهور كاتيا ولا بد أنها كانت محرك أحلامه، الدكتور أحمد سيف، ابن اللورد سيف، كان يطيل كشفه الطبـــــي أكثر من اللازم، حين آخذها إليه في عيادته لمتابعة حملها وينقـــر عدة مرات على بطنها، وأنفاسه متلاحقة. العمدة صاحب الحلال الذي كان موجوداً في بيت المرضعة، ساعة أن ذهبنا إليه، لم يكن يمص عظم الدجاج في براءة، ولكن بتعمد الإثارة. عثرت على نظـــرات الغزل والهيام، عند غباشي الجزار، والمشرد كنكل ساكن الـــشوارع، والأمـــي موســـى خاطر، والدسوقي صاحب كشك الأغنيات المسروقة، وحتى عند باعة الثلج وعصير الليمون، وشرطي المرور عوض الله كوة، حين كنا نعبر بقربه في سيارة للأجرة، ولا بد أن عائلة الجن آل مسيكة شاركوا في الإثم أيضاً، لأن فستانها ارتفع مـــرة عالـــياً، ولم تكن ثمة ريح ترفع الفساتين. اكتشفت كل هذا وكـــان من الممكن أن أكتشف أكثر، لو استجبت لذاكرتي المعدة جـــيداً، المدربة على كل صغيرة، وكبيرة، والتي كانت مرجعاً لأهل الحـــي، يدقون بابها كلما أرادوا أن يتذكروا. وفي لحظة من لحظات العمـــى والصمم، نهضت واقفاً لأعيد ذلك المشهد القديم للشريط السينمائي المصري الذي أنتج في ستينيات القرن الماضي. دخلت إلى غـــرفة النوم أولا، أخرجت ثياب كاتيا الزرقاء من الخزانة، بعثرتها أمامـــي، وأخذت أشمها ثوباً ثوباً.. ذهبت إلى الحمام، شممت إصبع المعجون وفرشاة الأسنان، وصابونة الزست الموضوعة هناك، وحتى

عطر الكولونيا وشامبو البانتين لعلي أعثر على أثر.. وقفت في وسط الصالة، وكاتيا ما تزال تبكي، شممت الهواء برعونة، واستخرجت منه روائح لعطور مثل ماكسي، وجست كول، وون مان شو، وارتعدت. لست رجلاً حقيقة، وبيتي منتهك بالبذاءة، لكن سيعرف الجميع بمن فيهم كاتيا، من هوعلي جرجار، من هوالغافل الذي استيقظ فجأة. صحت في وجهها أن تسكت، وتلتم في البيت ولا تغادره حتى تضع الحمل، صحت فيها مرة أخرى أن لا تفتح الباب في غيابي، حتى لو انخلعت مفاصله. وسأكون كريماً حين أذهب وحدي إلى السوق أجلب لها ما تحتاجه، وأحضر لها بريدها الإليكتروني مطبوعا من الكريزي كافيه بعد أن أعثر على مترجم، يترجم لي كل كلمة فيه.. هل هذا واضح؟

لم ترد، وأحسست أن اللوحة المكتوب فيها، "علي وكاتيا إلى الأبد"، والمعلقة أعلى رأسها تماماً، تتأرجح لكنني لم أهتم. اتجهت إلى المطبخ، بعثرت جميع السكاكين التي فيه أمامي، واخترت أسنها شفرة، وضعتها في جيبي، اتجهت إلى غرفة النوم، حيث توجد عصا من خشب الأبنوس، كانت فيما مضى تخص أبي، واحتفظت بها كذكرى، أمسكتها بقوة وتأكدت من صلادتها.. كنت أسمع كاتيا تصيح خلفي أن أعود، عد أرجوك.. من أجلي.. علي وكاتيا.. لكن لم تكن لدي نية للعودة قطعاً.

وقفت أمام عركي صاحب البقالة، وأنا أستعر، كان عنده رجل مسن، يسأل عن صبغة بيجون الرخيصة ليفاجئ بها امرأته، حين يعود شاباً، أزحته جانباً بلا رحمة، وأخرجت سكيني، ورأيت رعباً في عيني البقال، لم أره أبداً في عيني أحد من قبل، لوّحت بالسكين في وجهه، فتفاداها، وهويت على رأسه بالعصا ليخرج

الوجع والدم. عثرت على المشرد كنكل ساكن الشوارع رابضاً في إحـــدى الحفر يعبث بهاتفه المحمول، انتزعته من الحفرة، جرحته في ســـاقيه بالسكين، وحطمت هاتفه، انطلقت في الشوارع، وسكينتي حمـــراء يقطـــر منها الشر والدم كنت أبحث عن أيمن الحضاري ولم أجده وأبحث عن سوكارنو النبوي ولم أجده، ورأيت الحي فائراً عن آخـــره، بعـــضهم يهربون من وجهي، وبعضهم يحاولون تهدئتي أو الإمـــساك بـــــي. رأيت شمعة بلا سيجارة يقترب ويبتعد، وحليمة المرضعة مكشوفة الرأس.. تصرخ: من أجل طفلك يا جرجار.. من أجـــل كاتيا العسل يا علي. رأيت سلافة الجميلة، خداها متورمان، ووجههـــا بلا زينة مبهرجة، خيالاً يشبه حكيم النبوي، يتكئ على عكازتين مشققتين، يقرأ قصيدة تافهة اسمها كاتيا الملاك ونمل أسود يخرج من حلقه، ومتأنقاً يشبه الحكومي مبروك خضر يمسك بامرأة إثيوبـــية مـــن يدها، ويضحك في شماتة، ومقعداً متحركاً يخرج منه صـــوت كبير.. لن تنال المجد. ومرت حافلة فيها ركاب يتصايحون، ويـــصفّرون، ويقذفـــونني بقشر المانجو والبرتقال، وأقسم أنني رأيت بيـــنهم شيخ العواني، وتلميذة ساحل العاج صاحبة الرمد والأنيميا، ومـــيخا ميخائيل يضع فمه على خد مندوب هجرة لوكسمبورج.. كانت ركبتاي تؤلمانني بشدة، عقلي يؤلمني أيضاً، وسكينتي مسنونة في كل وجه، وحين استطعت في النهاية أن أمسك بواحد من عائلة الجـــن، آل مـــسيكة، وأذبحه أمام الناس، ارتج الحي كله في صوت واحد:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

ركضت إلى البيت، والصراخ خلفي، فتحت الباب والصراخ في حلقي وقلبـــي، وعينيَّ. كانت كاتيا مهدمة، وقد تلاشت فتنتها تماماً،

وبدا وجهها نظيفاً من أي علامات إغراء، لم تقاوم حين أمسكتها من كتفيها، وحين ألقيت بجسدها على الأرض، وحين غرست سكينتي في موضع طري، لم يكن إلا أحشاءها..

-16-

كنت في سيارة مكشوفة لونها أحمر داكن، وقد رسم علي جانبها شعار ما. يداي مقيدتان إلى هيكلها بسلاسل من حديد، وجسدي في قمة تهيجه، يناضل، ويناضل، ولكن لا شيء سوى الألم والدم. بجواري الأمني موسى وعشرات آخرون يشبهونه، ويحملون الأسلحة، وأجهزة اللاسلكي التي كانت تنطق بشفرة عن هطول المطر أخيراً، وعودة الخضراوات إلى السوق، وسقوط فرعون في قبضة موسى. كان حي غائب ممتلئاً بالفوضى، والتساؤل. رأيت لافتات محلات البيع كلّها تسقط، وترتفع مكانها لافتات أخرى.. بقالة كاتيا.. ملحمة كاتيا.. مغسلة كاتيا.. إيجار الدراجات.. كاتيا.. خياط الفساتين، كاتيا، وحين عبرنا بجوار بيت حليمة المرضعة، شاهدت زينة من الورد والفوانيس الخضراء معلقة عليه، وسيارة حكومية سوداء تقف فجأة ويهبط منها رجل طويل نصف وجهه مشوه، يرتدي الثوب والعمامة، وبرفقته فتاة أوروبية شقراء، ترتدي فستاناً أزرق، ولم أستطع تأملها جيداً، لأن عينيَّ أظلمتا، وسقط رأسي على كتف الأمني موسى خاطر.